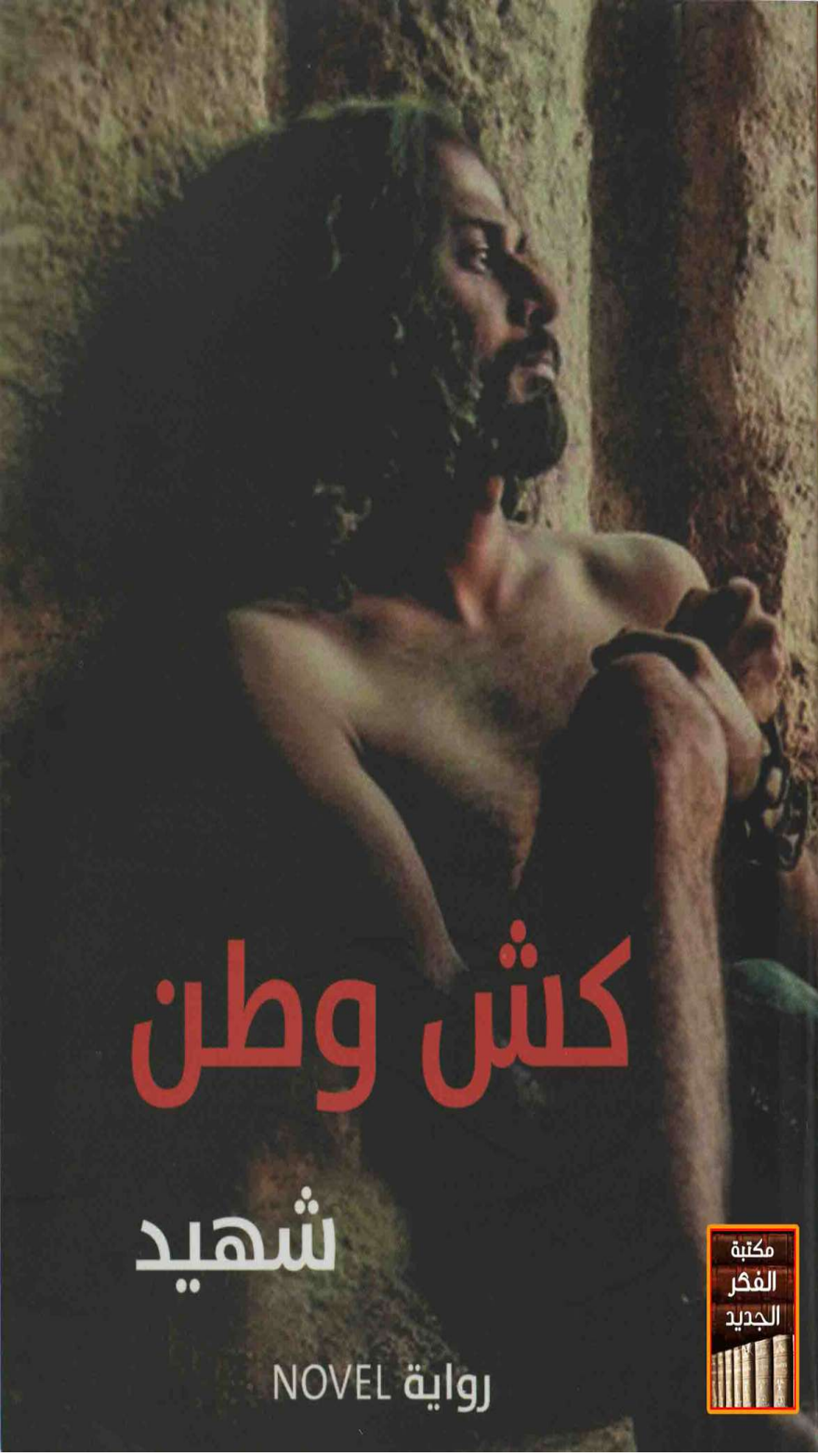
كش وطن
شهيد
رواية NOVEL
مكتبة
الفكر
الجديد

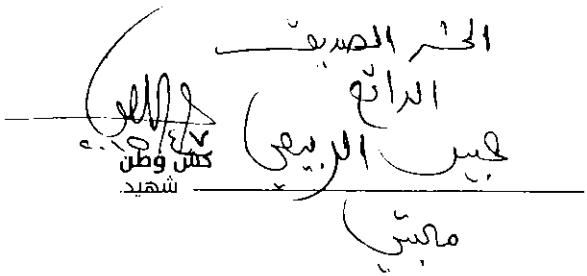

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

عبير الربيعي

كش وطن

شهيد

رواية

الطبعة الأولى 2015

سطور

مكتبة
الفكر
الجديد

كش وطن

شهيد

Kish Homeland

Shaheed a author from Iraq

الطبعة الأولى 2015
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07905219996 - e.mail: bal_alame@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف شهيد حسب قوانين الملكية الفكرية للعلم 1988،
ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.

First Published by Dar Sutour for Publishing and Distribution
Baghdad- Iraq- Al Mutnabi street- Jadeed Hassan Basha Entry
Revised copyright © Dar Sotour and Shaheed. The right of the Author of this work has been asserted in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

Cover Deisgn & Lay- out by: Mohamad Hayawi

مكتبة الفكر الجديد

قبل إعدامه
كانت وصيته الأخيرة:
رجاءاً لا ترفعوا النقاط الثلاثة

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة الفكر الجديد

- 1 -

إبشر يا عبد الرزاق الجبران[1]، لقد أصبحتُ قوّاداً.
أنّه يومي الأول في مهنتي الجديدة يا صديقي..
كان قراراً إنتحارياً، أنا أشكرك لأنك منحتني الشجاعة الكافية لاتخاذه، أنت تعلم جيداً، بأننا ـ أنا وربي ـ فقط كنّا متواجدين لحظة إتخاذ ذلك القرار، لم يشاركنا في تلك اللحظة أحد سواك، كنّا متمردين وخارجين على جميع السلطات، وأولها سلطة الـ (لماذا)...
أنا الآن ـ يا صديقي ـ في حالة إنعتاق تام من تلك السلطة لأنني أعيش نشوة يومي الأول، هذا اليوم الربيعي الصافي الذي بدا وكأنه يتماهى مع مزاجي المهني، مزاجي الرطب الخارج من رحم ذلك القرار الانتحاري سيجتاز عتبته الأولى هذا اليوم، لقد تحدد مصيره بلفظة صغيرة، هذه اللفظة تمكنت أن ترسم له الطقوس الملائمة لهكذا مهنة...
هذا المزاج المهني الرائق كان ينقصه شيء واحد فقط، كان يفتقدك يا صديقي...
كم تمنيت أن تكون حاضراً لتبارك يوم عملي الأول، وان تشدّ من أزري وأنا أخوض التجربة عملياً بعد ان خضتها نظرياً من خلال التفاعل مع نظرياتك، أتتوقع بأني سأنجح في هذه المهنة؟ وان فشلت ـ لا سامح الله ـ هل ستزعل مني؟ عذراً صديقي انها مجرد افتراضات، افتراضات او تهويمات اليوم الاول..
بوّدي أن أقول لك شيئاً يا صديقي، ومن المؤكد إنّه سيفرحك،

مكتبة الفكر الجديد

هذا اليوم وأنا أفتح باب المبغى، أول فكرة خطرت ببالي هي ان أقدّم لكل زبون يرتاد مبغاي نسخة من كتابك (مبغى المعبد)، هذه الفكرة لم تأت إعتباطاً، لا أبداً، وإنما كان لها دوافعها النفسية والعملية، ما دفعني لها هو رغبتي بأن أثبت للعالم بأنني صاحب رسالة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أردت أن أوجّه دعوة لكل مرتادي المبغى، أطلب منهم فيها ان يشاركونني في تطهير العالم ...

أتخيلك الآن، جالساً أمامي لتؤدي الدور نيابة عني، بملامح صلبة، وشارب طويل يصل الى أسفل جانبي الفم، وربما بسلاح تخفيه تحت ملابسك تحسباً للحالات الطارئة، يقال ان هذه المهنة تحتاج الى الكثير من الحذر، أتصورك بهالة قدسية تمارس دورك في تطهير العالم، تتفاعل مع ذوي الإحتياجات بروح مهنية عالية، ترحب بالزبائن وتقرأ لهم سطوراً من (جمهورية النبي) ثم تقوم بارشادهم الى مكامن اللذة وبعد ذلك تودعهم بإبتسامة مماثلة للإبتسامة التي استقبلتهم بها..

أتمثلك وأحاول تقليدك، أطمح أن أكون مثلك في كل شيء، جلستك، حركاتك، إيماناتك، عهرك المقدس، إنثيالاتك المحاذية لرؤى القوّادين، هؤلاء الذين أنتميت إليهم وأصبحت واحداً منهم هذا اليوم..

أنا قوّاد، ما أعظم ذلك، ما أروع الأنسلاخ من الذات، إنه لفعلٌ عظيم أن تخرج من الأنا الضامرة المفروضة عليك، ما أروع ذلك الخروج حين يكون عن طريق الدعارة..

الدعارة... أتسمح لي بإستعمال هذا المصطلح يا صديقي، وهل تراه مناسباً للسلوك التطهري الذي باشرنا به هذا اليوم، من أين اشتقت مفردة (دعارة) وما هو مصدرها اللغوي؟ هذا ليس مهماً أليس كذلك يا صديقي، الاصطلاحات تذوب في المعاني والدلالات تتوجه الى الأعماق فقط، هذا ما يجب

مكتبة الفكر الجديد

أن نؤمن به أنا واسراء وماجده وهيفاء ونورا وسناء وبلقيس وصباح وانعام وشيماء وندى وكريمه وكل إنسانة ترغب في وضع أقدامها على سُلّم الأرتقاء الإنساني، أقول ذلك وأنا غارق في بحر خجلي وحيائي من عبد الستار ناصر[2]، أستحي منهُ لأني ارتكبت عمليّة قرصنة تمس إرثه القصصي، لقد استعرت أسماء بطلاته ومنحته للنساء الراكبات معي في سفينتي التي أمخَرت هذا الصباح...

إعذرني يا عم عبد الستار ربما سأغرق وأنا مُحمّل بأسمائك الجميلة، أنا واثق بأنك ستعذرني، ستعذرني لأني ما فعلت ذلك الا من أجل إضفاء رونق القداسة الى التجربة، إيها المقدّس لقد أسميت شريكاتي في العمل بأسماء مأخوذة من احدى قصصك المجنونة، انا كقوّاد متمدن أرى ان تلك الاسماء تناسب التجربة اكثر من أسماء عاهراتي الحقيقية، اسمائك تلائم مستوى العهر الذي اطمح بالوصول اليه والدعارة التي ابتغي كمالها...

انا يا عم عبد الستار أفعل ذلك كلّه لسبب واحد، سبب بسيط جداً وأنت بالتأكيد على علم تام به وخلاصته أنني لا أريد ان يقوم احد ما بإنتزاع حياتي، اليست هذه هي نظرية المجانين التي اشرتَ اليها اكثر من مرة في قصصك..؟

حياتي هي تجربتي، تجربتي التي رأت النور هذا اليوم، تجربة (الما بعد) المتعلقة بالذات، ولكونها متعلقة بالذات فأني اريدُ لها أن تكون منشّقة عن كل شيء، حتى عن الاسماء الجاهزة، أنا متيقن بأن تلك الاسماء السحرية التي تحمل عبق رائحتك ستجعلني قديساً يتمركز في نقطة جوهرية من الوجود ليتحسس نشوة الايمان بالحياة، الاسماء الحقيقية كلها كاذبة، لذلك هي لا تهمني، الاسماء التي نسرقها او نستعيرها هي الحقيقة...

مكتبة الفكر الجديد

هنالك شيء آخر أريد أن أضيفه، واعذرني ان كنت قاسياً بعض الشيء يا عم عبد الستار، يجب ان تعذرني لأن قسوتي ناتجة عن استثنائية التجربة، ما اردت قوله هو ان اية واحدة من عاهراتي ستعترض على استبدال اسمها ستلقى على قارعة الطريق ولن تجد لها مكاناً داخل مملكتي، لتذهب وتمارس الدعارة في أي جهنم أخرى، إنها جنّتي وأنا حر باختيار الطقوس التي تناسبها.

- 2 -

(تفضل)
كلمتي الأولى التي نطقتها هذا اليوم..
وأنا أتلفظها، وأتحسّس ردّة فعل متلقيها، أدركت بأن حيزي الوجودي قد اتسع بصورة لم أكن أتوقعها، نعم لم أكن أتوقع ذلك ولم أكن اخطط له أصلاً، هذه المفردة السحرية قفزت الى مشهد اليوم الأول بدون أن تستأذن من أحد، ربما تكون هناك يد خفية قد أرسلتها لي، في كثير من الأحيان تكون الأقدار متواطئة معنا، تساندنا وتدعمنا وتمد لنا يد العون دون أن نشعر..
كنت قلقاً، متردداً، وهذا شيء طبيعي يرتبط بأي ممارسة جديدة، ولكن ارتباكي المهني زال بصورة مباشرة بعد حضور تلك المفردة، زال نهائياً وأدركت بأنني امتلك الأهلية الكاملة لأكون قوّادا..
يا لهذا الجمال، إنها كلمة بسيطة ولكنها ذات بُعد كمالي لقوّاد مستجد يمارس عمله في اليوم الأول، وأنا أقدمها كمادة

مكتبة الفكر الجديد

استقبالية شعرت ان شخصيتي كقوّاد قد وصلت الى مرحلة الكمال..
مع كل (تفضّل) أقدّمها للزبائن، يزداد شعوري بوجوديتي.
يتسع أفق العالم أمامي، اشعر بان ذلك العالم كله يعيش في حالة ترقب وانتظار، انه ينتظر هذه الـ (تفضل)، هو ينتظر وأنا الوحيد على سطح الكرة الارضية الذي يمتلك ترخيصاً بتقديمها..
توافد الزبائن وتوافد الـ(تفضل)، مع بعض السطور من (مبغى المعبد) هي خلاصة لذّة اليوم الأول، هذه اللذة التي رسّخت بداخلي فكرة ان الاصطلاحات بما لها من معنى نفسي عميق قد تفوق كل الاعتبارات اليومية التي يستهلكها العقل البشري..
وجوديتي الضائعة، التي اقترنت بهذه الـ (تفضل) اكتشفتُ ملامحها في وجوه زبائني، كان تفاعلهم معها يثير فيّ الكثير من النزعات المكبوتة، النزعات التي كانت قيد الانتظار، والمتعلقة كلها بذاتي المفقودة التي صدرت شهادة ميلادها هذا اليوم، ما أجمل ان يكون تواصلك مع الانسانية عن طريق كلمة واحدة، كلمة صغيرة تختصر وجودنا بكل غاياته الجمالية..
الأشياء المُعطّلة بداخلي قد تفعّلت، كياني السابق لم يعد كما كان، لم اعد منقطعاً عن الآخرين، أعلى درجات التفاعل قد تحققت بواسطة كلمة (تفضل)...
مع كل زبون يدخل كنت أترقب دخول زبوناً جديد، لا يمكنني ان اصف سعادتي وأنا أشاهد الزبون يدخل من باب المبغى متوجهاً نحوي، ذهبتْ بي تصوراتي بعيداً فتصورت نفسي رضوان خازن الجنّة..
ذلك العامل على باب الجنة، وهو يستقبل زبائنه، أي مفردة

مكتبة الفكر الجديد

يستخدم، هل يستخدم نفس المفردة التي استخدمها أنا..؟
كنت احاول قدر الإمكان إختصار ما يتعلق بالتعامل المادي، ركّزت على حسم ذلك الموضوع بصورة سريعة طمعاً بالوصول الى لحظة الـ (تفضل)...
المبالغ النقدية التي استحصلها من الزبائن لم تكن لتضفي الصبغة المادية على طبيعة العلاقة بيننا، إن المفردة التي تلي ذلك التعامل كفيلة بإضفاء الطابع الانساني على ما نقوم به..
عندما يتوجه الزبون الى غرفة اللذة بعد ان اقول له تفضل اشعر بأني قد منحته جواز السفر الذي يحمل تأشيرة الدخول الى تلك الجنة، نعم بهذه المفردة تشعره بأنه قد حصل على الموافقات الاصولية لنيل السعادة، ما أعظم ان تفتح للناس ابواب السعادة، ان تمنحهم حق الدخول من تلك الابواب، ان تستقبل أحدهم بابتسامة مهنية وتقول له: تفضل.
في الواقع، أنا لم اخطط لإستعمال هذه الكلمة على هذا النحو الذي تكلمت عنه، الصدفة وحدها هي من قادتني الى ذلك، هي من فعّلت دور تلك الكلمة واعطتها قيمتها المكتشفة هذا اليوم، وكان للأثر الذي لاحظته في نفوس مُتلقيها الدور الاكبر في سيادتها للمشهد المهني بعد ذلك، إنها تزداد ثراءاً كلما زاد استعمالها من قبلي، كأن المعنى النفسي للمهنة قد تلّخص بها..
انا محظوظ لأنني منذ اليوم الأول قد تمكنت من اكتشاف سر المهنة.

مكتبة الفكر الجديد

- 3 -

القوّادون يتناسلون....
إبتداءاً من أفلاطون وانتهاءاً بـ (ابو نظمي)، كلهم هنا.. في رأسي..
هذا الرأس الذي تحوّل الى متحف كبير للقوادة، من يدخل اليه سيخرج وفي جعبته الارث الكامل لتاريخ العهر العالمي، قوّادون من مختلف الجنسيات يرتعون هنا، يعرضون سيرتهم الذاتية لهواة الآثار الداعرة، أولهم افلاطون مؤسس جمهورية القوادة ومبتكر أكبر حضارة جنسية، ذلك الذي في جمهوريته الفاضلة يندثر الوجع الوجودي، جمهوريته التي أشاع فيها النساء وجعلهن مُباحات للجميع، لكل من يشتهي، في تلك الجمهورية الكل متساوون والنساء ملك للجميع والمضاجعة حق مكفول، إنه العهر الافلاطوني الداعي الى مضاجعة كل شيء.. حتى الآلهة.
من افلاطون تناسل عشرات القوّادين ومن مدينته الفاضلة أنحدرت نظريات العهر لتجتمع في رأسي، مجاميع غريبة من وجوه بملامح قاسية وشوارب طويلة تُشكل علامة ذات ايحاء متقاطع ومتشاكل أبرز ما يدل عليها وجه (ابو نظمي)، ذلك الوجه الاكثر انزياحاً في محور تصوراتي...
ابو نظمي ذلك الحقير الذي أهانني مرتين وفي مراحل زمنية متباعدة، أتصوره الآن بوجهين، كل وجه يناسب مرحلة زمنية معينة واهانة معينة، إنها ترسبات الماضي المحرّضة لوعيي أنا القوّاد الناشئ، القوّاد الذي يحمل ذاكرة معبئة بالاهانات...
اللعنة عليك يا ابا نظمي أنت لا تملك اخلاقاً افلاطونية، ومن

مكتبة الفكر الجديد

العار اعتبارك امتداداً لمؤسس الجمهورية الفاضلة، أقول ذلك بحقك لأنك في احد الايام منعتني من الدخول...
الآن تعود بي الذاكرة الى ذلك اليوم والى تلك اللحظة بالتحديد، كان لدي استعداد كامل للدفع ولكنك لم تمنحني فرصة الدخول، أنت الآن ماثل أمامي بوجهك الاول، وجهك المقترن بلحظة المنع، كان وجهاً متخشبا وذو ملامح صمغية، وهذا ما أبقاه ملتصقاً بذاكرتي لحد هذه اللحظة، افلاطون بريء منك يا ابا نظمي، كان الدخول، مجرد الدخول، يمثل لي حُلماً كونياً لأني كنت أحمل بداخلي طاقة جيل كامل، جيل متوتر منحني وكالة عامة مطلقة وقال لي اذهب الى ابو نظمي....
تلك الإهانة التي وجهتها الى الجيل الشبق مثلت الانكسار النفسي الاول الذي راح يتضخم ليتحوّل فيما بعد الى هزة أرضية جعلتني ارتفع الى سماء لم أكن أتوقع بإني سأصل إليها في يوم ما، علقت بغيمة التدين، بقيت معلقاً بتلك الغيمة لعدّة سنوات، أنظرُ الى الاشياء من موقع اعلى، انقلبت كينونتي، تحولتُ الى شيء آخر، قس، كاهن، شيخ، راهب، شيء تجتمع فيه كل مرموزات الآلهة، لا استطيع تحديد الصفة المناسبة لوضعي انذاك، كل التوصيفات الأثنية قد تلبستني فتماهيت مع عوالمي الجديدة، أندمجت بها الى درجة التهجن، الى درجة اصبحتُ فيها كأني قطعة من اثاث الجامع، مجرد انتيكة تفقد قيمتها بمجرد إخراجها من ذلك المكان، لذلك لم أغادر ذلك مكاني إلى اليوم الذي جاءتني فيه إهانتك الثانية..
هذه الإهانة التي يمكنني وصفها بالإهانة الانقلابية، قدرية إنقلاباتي أن تكون على يديك، أو بالأحرى على وجهك، وجهك الثاني صاحب الإهانة الثانية الذي مارس التضاد مع نسخة الوجه الأول المحفوظة في ذاكرتي شكّل لي صدمة

مكتبة الفكر الجديد

تشبه الى حد كبير الصدمات الكهربائية التي تُعيد شيئاً من الحياة لمن بدأ الموت بقضم أعمارهم...
كنتُ قديساً ذاوياً في محراب مُهمل حين اقتحمني وجهك المطرز باللآثام، فاجتني دخولك لهكذا مكان وتضخّمت المفاجئة حين عرفت بأنك جئت تطلب التوبة...
التوبة.. وعلى يد من؟ على يدي... !!
يومها وأنا اطالع الشيب الذي غزا شعرك وأقلّب ركام الذنوب المتكدس في ثنايا وجهك شعرت بأني في الموقع الخطأ وان المكان الذي اتواجد فيه ما هو الا حمّام لغسل الرذيلة، هكذا حدثتني نفسي فتولّدت في داخلي صرخة اعتراضية: ماذا تعتقد يا ابا نظمي هل انا مغّفل الى هذه الدرجة لأكون وسيطاً لتطبيع العلاقات بينك وبين الآله، وأن كنت أنا مُغّفلاً فهل تظن ان الجهة التي تريد التفاوض معها مغّفلة ايضاً، لا لا يا ابا نظمي... لا ايها الحقير..
كنت بوضع هستيري وأنا اصرخ ولكن الصرخة التي اطلقتها لم يسمعها احد حتى ابا نظمي، خصوصاً بعد ان تهيأ لي بان الجامع قد تكوّنت له ابواباً عديدة فأصبح عبارة عن كتلة مُثقبة، جدرانه تحولتْ الى منافذ عبور تدخل منها أجناس بشرية مشوهة كلها تتقدم باتجاهي...
بعد ان عدت الى وعيي غالبني شعور غامض فقد نزع تفكيري الى ان هنالك ثمة إنهدام، بناء ينهار، قوى جبّارة تتهاوى أمام ناظري، تيقنت بأن الاهانة تدركني وان كنت في بروج مشيدة، وان هناك خلل في منظومتي الاعتقادية، خلل يتعلق بالثوابت وان المهمة التي اوكلها أي الرب او التي اوكلتها الى نفسي مهمة بائسة وان أسوار مملكتي منخفضة جداً ويمكن لأي أحد مهما كان حجمه ضئيلا العبور عليها وهتك أسرارها...

مكتبة الفكر الجديد

منذ ذلك اليوم بت أمارس أشياء غريبة لم اعتد عليها من قبل، كنت أنظر في المرآة وابتعد بسرعة كأني الوذ بالفرار من خطر محدق، شعرت بأن شكلي بدأ يتغير، هنالك ملامح قد التصقت بوجهي، وهذا ما يجعلني اهرب من المرآة، لم يعد بإمكاني ان افعل شيئا سوى الهروب من وجه ابو نظمي.. اقصد وجهي.

- 4 -

عظيم هو الإنسان، عظيم في كل شيء حتى في دعارته..
هذا ما توصلت اليه من خلال مهنتي الجديدة، عفواً اريد ان اصحح شيئاً، إنها ليست مهنة، خطأ فادح ان يطلق عليها اصطلاح عمل، خطأ يصل الى درجة التعسف..
ها أنا أمارسها منذ عدّة أشهر، لقد تصاعد الخط البياني لفهم ما أقوم به، ثيمتي الآن أنّي أوزّع ذاتي في ذوات متعددة، ذاتي بفهمها المُكتسب من معطيات ما تقدمه من نشاط تواصلي لإسعاد الآخرين، وخلق مناخ جمالي يقرّب الارواح في سياقات بعيدة عن أي نوع من أنواع التمييز..
عدّة أشهر أنقضت وأنا اقدّم السعادة للراغبين وأتفاعل معهم بباعث انساني محض، لقد نضجت الفكرة بداخلي، وأصبح للباب الذي اجلس قبالته معنى آخر، جعله في نظري يختلف جذرياً عن بقية الابواب، باب السجن وباب المستشفى وباب الضريبة وباب المسؤول، كلها لا تشبه بابي..
باب الحياة، يمكنني ان اطلق هذا الاسم على بابي، باب الحياة المفتوح المُستعد لإستقبال أي أحد، نعم هو كذلك لأنه لا يؤمن بثقافة الانغلاق والطرد..

مكتبة الفكر الجديد

من هذا الباب سيدخل الجميع، لا توجد محظورات ولا منع ولا اجتثاث، الكل مسموح له بالدخول ما عدا (ابو نظمي) طبعاً، وحتى ابو نظمي قد اشمله بإنسانيتي وأعفو عنه واسمح له بالدخول، إن الاعتبارات الإنسانية لديّ فوق كل شيء، أنا قوّاد بإنسانيتي وبناءاً على ذلك يجب أن أكون عظيماً لان هذا المكان لا يليق إلا بالعظماء، كل عظماء الكرة الأرضية سيقفون الى جانبي، كلهم سيباركون هذا المكان، حضورهم هنا طبيعي جداً ولا يثير الاستغراب لأن كل الداخلين من باب الحياة، بابي، يحملون دلالتهم الإنسانية فقط وما عدا ذلك فيُنزع قبل ولوج الباب، هذا ما أراد اوباما أن يؤكدّه وهو يدخل مبغاي باحثاً عن إنسانيته التي يبغي لها ان تتمازج مع ذات أخرى منحدرة من أصول عرقية مسحوقة، هذا الأمر ليس غريباً على رئيس أعظم وأقوى دولة في العالم، كما إنّه ليس غريباً على محمد مرسي الذي يريد ان يثبت للمصريين بأنهم قد اخطئوا بحقه فهو إنسان مثلهم ـ رغم انتمائه للإخوان المسلمين ـ له خطاياه ودعارته وهو قبل كل شيء هو مصري والشعب المصري شعب حالم يحب السعادة ..

هنا لا هوية ولا طبقية ولا ديانة ولا قومية ولا جنسية، الانتماء هنا للإنسانية فقط، الإنسانية المتوجهة الى السمو الروحي واللذة الفطرية، هذا ما سينطبع في نفوس زبائني وهم يشاهدون نيلسون مانديلا الشيخ الهرم يتجول في أروقة المبغى، من المؤكد إنّ حضوره هنا لإضفاء الشرعية فقط ذلك لكون مفهوم الجنس لديه قد اصبح موضوعة نظرية لا تقوى أعضائه على تطبيقها، وجوده هنا له معنى واحد، وهو ان العالم يمكن ان يتوّحد وان هنالك شيئاً يمكن ممارسته لتحقيق ذلك التوحد..

أنا اشكرك مانديلا واشكر تلميذك اوباما وأقول مرسي

مكتبة الفكر الجديد

لمرسي، أشكرهم لشهادتهم بأني أنسان وان ما اقوم به في سبيل الانسانية، هذه الانسانية لنا حصة فيها وعلينا ان نجد وسيلة للتعبير عن ذلك، هذا ما جعلني اتخيّل مانديلا واقفاً لفترة طويلة أمام ارثنا الحضاري وهو يمتع ناظره بوجوه النساء اللواتي جاءن الى هذا المكان ليقدمن اللذة على طبق من انسانية، رأيته في لحظة ما واجماً فأدركت ان للزمن احكامه وان تلك الاحكام تصل الى درجة القسوة احياناً وانها لم تكن منصفة مع صديقي مانديلا، ماذا لو كانت الصدفة قادته الى هذا المكان قبل اربعين عاماً، هو يتسائل وانا اشاركه ذلك التسائل..

ما عليك مانديلا.. لا تزعل.. أنت صاحب مبدأ.

وجودك هنا نو مغزى عظيم، كنت أتمنى أن يكون عبد الستار ناصر حاضراً، ولكنه مات، مات قبل ان يكتب لنا شيئاً واحداً عن المباغي الكندية وقبل ان يروي لنا ولو قصة واحدة عن عاهرة من تلك البلاد التي ذهب اليها وهو خاوي القوى لا يستطيع ملامسة جسد النساء ولو بنظرة، لو كان حياً لكان يرافقك الآن في أروقة هذا البيت، ولكنه غير موجود الآن، أنا آسف مانديلا، عبد الستار ناصر يُسَلم عليك، يُسَلم عليك وعلى اوباما الذي قضى وطره وانزوى في احد أركان البيت يتأمل صورة مُعلّقة على أحد الجدران، صورة قديمة بالأبيض والأسود،ربما هو لا يعرف صاحب الصورة، أنا سأعرّفه به، إنّه الملك فيصل الأول، أول ملوك العراق..

من المؤكد بأن هنالك سؤال يجول في الخواطر، وهو متعلق بهذه الصورة بدون أدنى شك، أنا متيقن بأن السؤال يدور حول سر اختيار صورة هذا الشخص دون غيره، الجواب بإختصار شديد، لأنه كان يخطط لفتح مبغى رسمي في بغداد تحت رعاية وإشراف الدولة، نعم كان يفكر بذلك ولكن فكرته

مكتبة الفكر الجديد

اجهضت، اجهضها الشياطين...
بالإضافة الى اوباما ومانديلا ومرسي كان هناك العديد ممَن باركو التجربة بحضورهم، لا يمكنني التصريح باسمائهم جميعا وخصوصاً اخوتي العراقيين العاملين بمبدأ التقية، أنا لا ألومهم، ما يهمني هو انهم قد مارسوا عولمة العهر وكانوا معي يشتمون ابو نظمي، يشتمونه بصوت عال، حتى البابا، بابا الفاتيكان شتم ابو نظمي، اليس هذا سلوكاً توحدياً، ان تحقق الإنسانية وجودها بتلك الشتيمة التي أضافت شيئا من النشوة واللذة الى الواجبات الجسدية التي تمارس في هذا المكان..

***

آه... لقد تعبت، عليّ ان أنام، لقد أسرفت في التوهم، أنا آسف جداً، ما تقدم أعلاه، محض تصورات ناتجة عن تضخم الغُدة الحلمية لقوّاد بدأ يُصاب بالغرور.

- 5 -

لم تكن بلقيس شيئاً عابراً في هذا البيت...
لم تكن شيئاً عابراً بالنسبة لي، كان وجهها مُلفتاً للانتباه بمسحته الحزينة التي لا تناسب العاهرات، ما معنى أن تكون العاهرة حزينة، إنّه تضاد مثير للجدل....
من بين كل الفتيات العاملات في مبغاي، أنا أدعوهن فتيات بغض النظر عن مستواهن العمري والجمالي، الضرورات المهنيّة تقتضي أن تكون الروح المعنوية مرتفعة على الدوام،

مكتبة الفكر الجديد

من دون الجميع كنت أراقبها والاحظ سلوكياتها الغريبة، حضورها للعمل كان قليلاً، لم تكن تأتي بصورة مستمرة، قليلة الكلام وشحيحة الابتسام، تغطي وجهها غيوم الكآبة وكانت تميل الى ارتداء الملابس ذات الألوان الغامقة، انا بمقابل ذلك كلّه كنت اتجاهل رغبة مكبوتة تفور بداخلي طالبة اكتشاف أسرار هذه المرأة والولوج الى عوالمها، ولكن ذلك لم يتحقق...

مضت فترة طويلة انقطعت فيها عن المجيء الى العمل، فترة تقارب الشهر أو أكثر، بعد ذلك وفي يوم عمل مزدحم بالزبائن رأيتها تدخل الي البيت، اتجهتْ مباشرة الى احدى الغرف دون ان تكلم احداً، لم اسئلها عن سبب إنقطاعها رغم رغبتي بذلك، إنها حريتها الشخصية وأنا لا اتدخل في ذلك مُطلقاً.. هذا مبدأي في العمل... ذلك اليوم وبعد ان خلا البيت من الزبائن سمعت صوت نشيج وبكاء كان مصدره الغرفة التي تتواجد فيها بلقيس، إنها المرة الاولى التي أسمع فيها بكاءاً في هذا المكان... فاجئت بذلك لكوني اؤمن بأن هذه الاماكن غير مهيئة لهكذا نشاطات، البكاء في مكان آخر، ليس هنا، البكاء فعل غير ملائم لاماكن اللذة، هذه الاماكن وجدتْ ليتخلص الناس فيها من أحزانهم ومآسيهم، إنها الملاذ الأمن لمن يريد الهروب من تراجيات الحياة، الحياة هنا ذات مفهوم مختلف ومعنى خاص، معنى تصنعه اللذة، المتعة الوجودية، النسيان، نسيان كل شيء، القدر هنا يتعطل، قوانينه تتعطل، هذا المكان نقطة خارج الزمن...

كما ان هنالك مبدأ آخر، مبدأ وجودي يتعلق بي شخصياً ويرتبط بذاتي المهنية، خلاصتهُ أن البكاء في هذا البيت يعني الهزيمة، يعني الانكسار أمام العدو الذي أعلنتُ حربي عليه عندما افتتحت هذا المبغى..

مكتبة الفكر الجديد

هذه الارتجاعات دارت في راسي وأنا افتح باب الغرفة، دخلتُ فوجدتها تدير وجهها الى الحائط تتابع النشيج ما زال مستمراً، حين انتبهتْ لي عدّلت جلستها ورمقتني بنظرة منكسرة وقالت:

ـ أنا آسفة...

ـ مالذي جرى، قلت لها، لماذا هذا البكاء؟

لحظة صمت رهيبة سادت المكان، شعرت خلالها بأن الرب قد أرسل اكثر من مبعوث ليشهد هذه اللحظة، اولئك الرسل كلهم يمتلكون تفويضاً بالبحث عن تفسير لما يحدث..

حين يتوقف الزمن، يتوقف حسب مقاييس مشاعرنا فإن ذلك له معنى خاص، وهو ان الاوقات المصيرية يمكن اختصارها في لحظة واحدة، وإن للانسانية توقيتات مختارة يجب على العالم الالتفات اليها، عندما تبكي العاهرة فذلك يعني إن هنالك خلل ما قد أصاب المنظومة الكونية وإن العالم يمر بمرحلة حرجة وإن وعي الجمال بدأ يتأزم...

هذا ما أردت أن اقوله لها ولكن كلماتي غالبها شعور آخر، شعور هبّ عليّ من أقاصي الحرمان وجعلني أقوم بإحتضان تلك العاهرة الحزينة التي تسببت بإثارة نعرات الشجن في بيت دعارتي...

أحسست بأني ممسوس بفجيعة ما، وأن هنالك مخلوقات لا يمكنني تسميتها بدأت تحتل دماغي وتعبث به، كائنات ماساوية تهرول في صحراء ذهني كأنها خيول وحشية سيطرت على جزئيات تفكيري الصغيرة، بدأ جسمي يرتعد وأنا أتحسس حرارة الدمعة التي سقطت على ساعدي، حاولت أن أبكي ولكني لم استطع، ما تمنيته في تلك اللحظة هو أن يكون (فرويد) حاضراً معي في هذا الموقف لكي يجد لي تفسيراً لما يحدث..

مكتبة الفكر الجديد

أنا الآن تحت سماء مكشوفة، خالي من النظرية، مبادئ الكون جميعها تخلّت عني وفرويد الذي ربط كل التفسيرات النفسية لسلوكيات الانسان بالجنس رأيته يقف محايداً وكأن الامر لا يعنيه..
تركني وحيداً أمام إشكالية لم تناقشها أي نظرية عهرية ولم يقم أي قوّاد حداثوي بدراستها والتنظير لها قبل هذا اليوم...
سقطت دمعة أخرى على كتفي، دمعة إستباقية، أشعرتني بأني نبي فاشل، مع تلك الدمعة رأيت السماء تمطر بغزارة، مطر ألهي، على الرغم من كوننا لسنا في موسم المطر، ممكن جداً ان تكون تلك الدمعة قد انشطرت وتشظّت في داخلي لتكوّن ذلك المطر الذي بدأ يبلل سطح مخيلتي...
لحظة الصمت تهشّمت بصوت خارج من مغاليق البكاء، كان لصوتها وقع رذاذ المطر وهو ينزل على يباب روحي، أشبه ما يكون بخلطة عجيبة من إنكسار وشجن وضياع وتوسل وشيء قليل من العهر..
ـ إنني أتّمزق...
قالت ذلك ونظرت الى عينيّ نظرة شعرت بأنها قد ثقبت روحي، أدركت بأن عليّ ان أستمر بالصمت حتى أسمح لوجعها بالاسترسال وقد أسترسل وجعها بالفعل فاضافت:
ـ أنا أموت يومياً، بدأت روحي بالتآكل والضمور التدريجي، أخذ الزمن يمارس عدّه التنازلي معي وأنا اتقدم لملاقاة مصير تخلّى عن مجهوليته وكشف عن وجهه الحقيقي، أنا أُقتل كل يوم، أُقتل بيد وطني...
وطني الذي سلبني كل شيء ولم يبق مني سوى هذا الجسد الذي تحول الى سلعة تتداولها شهوات رجاله، أنا واحدة من النساء اللواتي أكلتهن الحروب، تلك الحروب المقدّسة التي تلتهم الرجال وتُلقي بزوجاتهم في الطرق المعبدة بالتوحش،

مكتبة الفكر الجديد

لقد ذهب زوجي شهيداً بمقاييس الوطن ليخلّفني ورائه عاهرة بموجب نفس المقاييس...
الشهداء اكرم منا جميعاً، هل سمعت بهذا الشعار؟
إن كنت قد سمعت به فأعلم بإننا الطرف النقيض في ذلك الشعار، نحن ارامل الشهداء لا حصة لنا في تلك الكرامة..
ودّعني وذهب الى الحرب ولم يعد....
لا لا.. لقد عاد ولكنه عاد متنكراً كأنه يريد لنا ان لا نصل الى قناعة تامة بما حصل، يريدنا ان لا نصدق بأنه المعني بالفجيعة، هذا ما جعله يعود بلا ملامح...
منذ ذلك اليوم تغيرت صورة الحياة عندي، أنا أيضاً اصبحت بلا ملامح، لقد أنعكس وجهه المتفحم على وجهي فأصبحت صورة طبق الاصل منه...
في البدء أعتقدت بأن الدنيا ومن فيها ستعلن الحداد تضامناً مع فجيعتي ولكن ذلك لم يحدث، لم يحزن أحد تضامناً مع حزني وتحول كل من حولي الى جنس آخر لا يمت للانسانية بصلة، الكل انتفت فيه تلك الصفة، وأولهم الوطن، الوطن هو قوّادي الأول، هو صاحب المبادرة، تحولت على يديه من زوجة شهيد الى عاهرة، إنّه صاحب الترخيص، حولني الى سلعة، أتعرف ما معنى ان يتحول الانسان الى سلعة....؟
إن يتم إدخالك الى ماكنة ضخمة تتولى إفراغك من محتواك الإنساني لتصبح جسداً رخيصاً بلا روح، او بضاعة استهلاكية يتناقلها قليلو الشرف....
طيلة السنوات الماضية وأنا اتخيّل زوجي الشهيد يراقبني، أراه يتبعني إينما اذهب، يرافق ظلي إينما حل، في بعض الاحيان كنت أمشي والتفت معتقدة بأن جميع من حولي يرون ما أرى، التفت فلا أراه فيزداد خوفي، يزداد ذلك الخوف ويفاجئني صوت غريب يأتيني من جهة لا أعلمها..

مكتبة الفكر الجديد

الشهيد الذي كان في يوم من الايام زوجي بوجهه الاسطوري المُختزل لتاريخ الحروب ومآسيها يقف في تقاطعات الخطيئة التي أمر بها، يقف هناك حاملاً وزر سؤال لا يقبل التحجيم، سؤال مكوّن من كلمة واحدة فقط هي: لماذا...؟
امام ذلك السؤال لم افعل شيئا سوى الهروب، كنت أهرب من ذلك السؤال لأني لم ولن أتمكن من الإجابة عليه وكنت دائما أحيله الى قوّادي صاحب الامتياز، أحيله عليه على الرغم من ثقتي بأنه لن يجيب على ذلك السؤال لمعرفتي بأنه قوّاد جاهل، قوّاد سادي يتلذذ بالآلام عاهراته، نشوته الكبرى أن يرى عاهراته متمددات على سرير الوجع وهنّ يرتعشن في لحظة جماع مع مسخ اسطوري يدعى الخوف، نعم أنا متأكدة بأنه لن يكّلف نفسه عناء الإجابة فهو غير معني بالإجابات، هو يحترف الإسقاط فقط.. وما عدا ذلك لا شأن له به....
اكثر من مرة حاولت أن استجمع قواي لاصرخ بوجه ذلك السؤال، أن أقول له إن الجوع كافر، لقد تبرأ الجميع من ارثك أيها الشهيد، الكل تعاملوا معه بمفهوم المقايضة، نزعة المقايضة الوطنية كانت عقداً محله الجسد، جسدي هو المقابل في نظر الجميع، ما دمت ارملة فذلك يعني انني في نطاق الاباحة، شيء مباح للاشتهاء، اللقمة مقابل الجسد، هذا هو قانون الزمن الداعر الذي سنّهُ وطني لكي يمارس من خلاله قوادته اللااخلاقية..
لفرط ما كنت محاصرة بذلك السؤال تحولت حياتي الى صرخة، صرخة تقارع الفراغ، ذلك الفراغ الرهيب الذي لم يملئه سوى صورة يظهر فيه وجه زوجي وهو يطارد خطيئتي، أدمنت على الخطيئة ومعها أدمنت على شيء آخر هو البكاء، كنت ابكي تحت رعاية وجه الشهيد المطعون في شرفه، راح ذلك الوجه يمارس حضوراً استثنائياً في حياتي،

مكتبة الفكر الجديد

بت أشاهده ملتصقاً على جدران كل الأمكنة التي ارتادها..
هذا اليوم رأيته اكثر شحوباً وهو يطلق على روحي نيران سؤاله، أحسسته ينزفني، ينزف برائتي الملوثة، كأنه نبي مهزوم لم يتمكن من المحافظة على دينه فراح يصرخ بوجه ربه طالباً منه إغاثته، يصرخ بأعلى صوته... يصرخ ويصرخ ولا أحد يجيبه سوى بكائي...

***

نظرتْ اليّ وهي تمسح دموعها وأحتضنتني وقالت:
ـ عذراً أيها القوّاد الشريف، لم اقصد أهانتك فأنت لا تشبه الوطن.

- 6 -

هنا.. تتوحد الوجوه وتصبح لها هيئة واحدة، من يأتي الى هذا المبغى يأتي متجرداً، يترك سيمائه في الخارج ويدخل، هو ملزم بأكتساب الملامح الخاصة بهذا المكان، هذه الطريقة هي ما أتبعته في قراءة الوجوه التي أتعامل معها...
تقنية التوّحد والاشتراك النوعي، البشر مختلفون ولكن على كثرة اختلافاتهم هناك ما يوحدهم، هذا ما يتحقق هنا، هنا تذوب الصفات وتختفي الغيريات، الكينونة الموحدة للجميع هي ما يتعلق بالأنا الحالمة، كنت أنظرُ الى الداخلين لمبغاي على إنهم اصناف أخرى من البشر، فيهم مس من الآلهة السومرية والاشورية والكلدانية والفنيقية واليونانية والاغريقية، كل الحضارات الجنسية متجسمة هنا، ما يمارس

مكتبة الفكر الجديد

هنا فعل مقدّس، انه قبس جنوني مستمد من تداعيات الآلهة، هذا المبغى هو الوريث الشرعي لمعابد الآلهة ميليتا وأنانا وعشتار، انه يمارس نفس الوظيفة التي تقوم بها افروديت اليونانية وفينوس الرومانية وعشتروت المقدسة عند الساميين، الدعارة في هذا البيت الصغير ماهي الا إرتقاء لاهوتي اقرب الى العبادة واستجابة لمبدأ كوني لا متناهٍ متعلق بالسعادة الانسانية...

كان من ضمن إشتراطاتي الصارمة في مجال العمل أن لا أدخل مع الزبائن في أي حوار أو نقاش، كنت أستعيض عن ذلك بممارسة الحوار مع ما تطرحه وجوههم من رؤى، صرت قارئ وجوه محترف، رحت اتصفح الحياة واقرأها في طيات تلك الوجوه، الملامح النهمة الجائعة للحياة تثير بي شهوة الاستكشاف لذلك كنت أخضع تلك الوجوه الى قراءتين، قراءة قبل الدخول وأخرى بعد الخروج، ما كان يشغلني هو التضاد الوجودي عند الزبائن، إشتغالات الأنا وتفريغ محتواها، كأن الإنسان يمارس الخروج من ذاته حين يفرّغ شحناته السلبية، يقذف مواجعه في يم التلاشي ويخرج مترنحاً...

أن الحياة تحكمها أنوثة الوجود، هذا ما أتفقت عليه وجوه زبائني..

أنا أعلم بأن هنالك قصص وحكايات كثيرة كانت تدور داخل غرف المبغى، رغم ذلك كنت أتقصّد عدم الاهتمام بها أو الالتفات اليها وكنت أتحاشى التفكير بها أصلاً، ما يهمني هو الوجوه، اصبحت لديّ وظيفتان: قوّاد وقارئ وجوه....

تلك الوجوه بدأت تتناسخ في ذهني، تتراكم بصورة عمودية مكونة هيكلاً معرفياً ضخماً ساعدني على قضاء أوقات فراغي..

مكتبة الفكر الجديد

يمكنني القول إن هذا المكان يمثّل لأصحاب تلك الوجوه عالماً إستثنائياً يمكن توصيفه بالعالم السري او الزاوية غير المعلنة الهاربة من الاضواء الكاشفة، الحياة الجانبية البعيدة عن مصادر الضوء، لقد مكّنتني هذه المهنة من أكون الوحيد الذي يمتلك الحق بتسليط الاضواء وتحديد اتجاهها، القوّاد هو الكائن الثاني المطلع على أسرار الخلق بعد الرب..
الاغنياء، الفقراء، الوزراء، الصعاليك، المثقفين، المجانين، المحامين، القضاة، السراق، التجار، كل هؤلاء تحت وصايتي، كلهم خاضعون لرحمة ذاكرتي، أقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال في كهف تصوراتي، أمارس عليهم صلاحياتي القوّادية، أنا أمتلك ذلك الحق لكوني مُسلّط على تلك الوجوه...
الوجوه التي أتعامل معها بعضها يزول من الذاكرة مبكراً والبعض الآخر يبقى عالقاً لمدّة طويلة خصوصاً من كان تدعمه حادثة ما تمنحه حق البقاء في أرشيف الذاكرة، في الغالب تكون تلك الحادثة مصدر دعم وتمويل إستذكاري لذلك الوجه، هذا ما يمكنني قوله بخصوص ذلك الزبون الذي راح يبكي وهو ينظر لصورة الملك فيصل..
لم أتدخل، لم أسئله عن سبب بكائه ولكن عوالمي الافتراضية كقوّاد محترف أخذتني بعيداً، بعيداً جداً، إلى مرحلة التأسيس، لحظة قيام الوطن، مقارنة الماضي بالحاضر، دموع ذلك الزبون كأنها تريد ان تُخبر الملك عن حال الدولة التي أسّسها وتقول له بأن شعبه لم يجد غير المباغي وسيلة للهروب من الواقع
اللحظات الدامعة تلك تخيلتها حواراً مطولاً بين الملك شعبه، حوار بنكهة الدمع المتبادل، ان العهر الذي يُمارس هنا أشرف بكثير من العهر الذي يُمارس في الخارج، هذا ما قالته دموع ذلك الزبون لجلالة الملك...

مكتبة الفكر الجديد

أتذكر ذلك دائماً، كما أتذكر زبوناً آخر يحمل من الغرابة الشيء الكثير، هذا الزبون إستثنائي بكل معنى الكلمة لكونه يدخل ولا يفعل شيئاً ولكنه يدفع بسخاء، تلك الغرابة إضطرتني الى الخروج على الضوابط المهنيّة التي آليت على نفسي أن التزم بها، دخلت معه في حوار طويل إستدرجني إليه سلوكه المخالف لسلوكيات بقية الزبائن، كان كثير التردد على المبغى، يأتي في اوقات ثابتة بشعره الكث الطويل وذقنه الحليق وملابسه التي توحي بأنه بوهيمي قادم من المدن الهامشية، أثار اهتمامي بملاحظة صغيرة وهي إنه دائماً يحمل معه كتاباً وفي كل مرة يدخل فيها الى غرفة اللذة تخبرني العاهرة التي دخلت معه بإنه لم يقم بالممارسة وإنما يكتفي بقراءة شيء من الكتاب الذي يصطحبه معه، هذا ما اضطرني الى كسر قوانين الصمت بعد أن هاجت بداخلي رغبة مُلحة لمعرفة ما يدفعه لفعل ذلك، بادرته بطلب:

ـ ممكن تقرأ لي شيئا من الكتاب الذي بين يديك؟

أبتسم أبتسامة خفيفة وأجابني:

ـ أعتقد بأنك لست بحاجة للقراءة من الكتب، لديك ما يغنيك عن ذلك، حياتك التي تعيشها هنا عبارة عن كتاب ضخم ومن المؤكد بأن ما فيه يجعلك تتصفحه كل يوم.. اليس كذلك؟

ـ ولكنك تقرأ للعاهرات !!

ـ أنا أمارس العهر بمفهوم المخالفة، أحاول أن اجرّب عملية منح اللذة، أن أكون الطرف المانح، أن أمارس السلوك الاتصالي بطريقة مغايرة، لعلي لا امتلك شيئاً سوى الكلمات وها أنا أفعل ذلك امتثالاً لرغبة الاتحاد بالآخرين...

ـ هل أنت فيلسوف؟

ـ كل الداخلين الى هذا المكان بمرتبة الفلاسفة، ربما أختلف عنهم بعض الشيء، قد تكون فلسفتي متطرفة ويخالطها

مكتبة الفكر الجديد

شيء من الجنون ولكنها جزء من فلسفة عامة، فلسفة الذات المنقوضة، فلسفة دعارة ضد دعارة..
الدعارة نشاط فلسفي ينطوي على رؤى احتجاجية عميقة، أنت مثلاً في نظري إنسان مُنتفض تحمل افكاراً ثورية لا تقل ثورية عن أفكار جيفارا وغيره من اصحاب الرسالات الانقلابية، كل شيء ضد المألوف هو ثورة، الدعارة خطيئة صغرى تعترض على خطيئة كبرى...
إستوقفتني الجملة الاخيرة فقلت له:
ـ وكيف ذلك؟
ـ الدعارة نتيجة مبنية على مسببات، سلوك ناتج عن سلوك آخر، كل دعارة متولدة من دعارة أخرى، العاهرات الموجودات في هذا المكان ما كنّ ليكتسبن هذه الصفة لولا وجود عهر خارجي قادهن للدخول في هذا التوصيف، عهر متوحش ادّى الى قتل البراءة التي غرسها الرب في كينونة المرأة، ذلك العهر هو الذي سلبها عفافها وشرفها، اسراء وماجده وهيفاء ونورا وسناء وبلقيس وصباح وانعام وشيماء وندى وكريمه وكل عاهرات البلد هن ضحايا للعهر الوطني، العهر الاجتماعي، العهر الانساني..... عهرنا.
دعني أقول اقول لك شيئاً، أنا هنا لأتطّهر من عهر المنظومة، قبل أن تسئلني عنها أقول لك بأنها المنظومة الاجتماعية المُدانة بخلق منظومة الدعارة، أنا هنا لاعتذر، لأُسقط خطيئتي التي إرتكبتها لكوني خليّة في ذلك الجسدالموبوء، أنا هنا لأقول للنساء الضحايا ان خطيئتنا أكبر وان عهرنا افحش...
ـ حسناً لدي طلب، ممكن تقرأ لي شيئاً من الكتاب الذي بين يديك..
فتح الكتاب الذي بحوزته وبدأ يقرأ:
ـ باق كما كان السؤال/ ومات معناه القديم/ من طول ما اهترأ

مكتبة الفكر الجديد

الجواب على الشفاه / وما الجواب / (أنا) قال بعض العابرين/ وانسلّت الأضواء من باب تثائب كالجحيم / تطفو عليهن البغايا كالفراشات العطاش / يبحثن في النيران عن قطرات ماء عن رشاش / لا تنقلنّ خطاك فالمبغى (علائي) الاديم / أبنائك الصرعى تراب تحت نعلك مستباح/ يتضاحكون ويعَولون / او يهمسون / بما جناه أب يبرؤه الصباح / مما جناه ويتبعون خطاك الى السكون/الحارس المكدود يعبر والبغايا متعبات / النوم في أحداقهن يرف كالطير السجين/ وعلى الشفاه او الجبين/ تترنح البسمات والاصباغ تكلى باكيات / متعثرات بالعيون وبالخطى والقهقهات / وكأن عارية الصدور / أوصال جندي قتيل كللوها بالزهور/ وكأنها درج الى الشهوات تزحمه الثغور/ حتى يهَدم أو يكاد / سوى بقايا من صخور/ جيف تستّر بالطلاء/ يكاد ينكر من رآها / أن الطفولة فجّرتها ذات يوم بالضياء / كالجدول الثرثار او ان الصباح رأى خطاها / في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء / ويكاد ينكر إن شقّاً لاح من خلل الطلاء/ قد كان حتى قبل أعوام من الدم والخطيئة / ثغر يكركر أو يثرثر بالاقاصيص البريئة /لأب يعود بما أستطاع من الهدايا في المساء/ لأب يقَبل وجه طفلته الندي او الجبين /او ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء/ ما كان يعلم ان الفم فم كبئر دون ماء/ ستمص من ذاك المحيا كل ماء للحياء/ حتى يجف على العظام وان عاراً كالوباء / يصم الحياة فليس تغسل منه الا بالدماء /سيحل من ذاك الجبين به ويلحق بالبنين / والساعدين الابيضيين/ كما تنور في السهول / تفاحة عذراء سوف يطوقان مع السنين / كالحيتين خصور الآف الرجال المتعبين/ الخارجين خروج آدم من نعيم في الحقول/ تفاحة الدم والرغيف وجرعتان من الكحول/ والحية الرقطاء ظل

مكتبة الفكر الجديد

من سياق الظالمين/ يا أنت يا أحد السكارى / يا من تريد من البغايا ما تريد من العذارى/ ما ظل يحلم منذ كان ويزرع في الصحارى/ زبد الشواطئ والمحارا / مترقباً ميلاد افروديت ليلاً او نهاراً / أتريد من هذا الحطام الادمي المستباح / دفء الربيع وفرحة الحمل الغرير مع الصباح / ودوام ما تلقاه من سأم وذل واكتداح / المال شيطان المدينة / لم يحظ من هذا الرهان بغير أجساد مهينة....

الى هذا الحد ولم يُكمل ما تبقى من القصيدة، تركني عبارة عن ثغر يكركر أو يثرثر بالاقاصيص البرينة، هذه الاقاصيص التي كان هو أحد شخوصها، كم تمنيت أن يُكمل بقية القصيدة وان يقرأ المقطع الذي يقول:

(الريح صَرٌ...
والبغي بلا زبائن منذ حين..
إن لم تضاجعها وصدّ سواك عنها معرضين...
فكيف تحيا...
وهي مثلك لا تعيش بلا طعام...)

لا أدري لماذا كان هذا المقطع من قصيدة السياب يدَبُ في رأسي كلما شاهدت ذلك الزبون البدين الذي جثم على ذاكرتي بوزنه الثقيل، كيف يمكنني أن أنساه أو بالاحرى كيف أنسى ضحكته المجلجلة التي أطلقها وهو يقلّب صفحات الكُتيّب الصغير الذي تعمدت أن أوزع أكثر من نسخة منه في أروقة البيت، كان يضحك بصوت عال وهو يردد:

ـ قانون مكافحة البغاء...ها.. ها..ها.. ها..

مكتبة الفكر الجديد

-7-

منذ أن احترفت القُوادة وأنا أمارس التفكير الأسترجاعي... أسترجع أشيائي القديمة وأقارنها مع واقعي الحاضر، القوّادات أكثر شيء أسترجعته وأستعدت ذكراه، نزواتي الشبابية التي تميّزت بالفشل جميعها مرتبطة برموز نسائية غير مألوفة، أتذكر بيوت الدعارة التي دخلتها وما حدث لي فيها، كنت أتقصد دخول المباغي التي تُديرها قوّادات، لا أعرف السر في ميلي الى ذلك، تلك التجارب الصغيرة وحسب ما أتذكر جميعها كانت تنتهي بمشكلة، مشكلة أكون فيها أنا البطل والضحية بالاضافة الى أنها تنتهي نهاية تراجيدية ودائماً أخرج منها مفلساً من اللذة...

القوّادات، رفيقات ذاكرتي، يزورن أفكاري وهنّ ضاحكات، وجوههن موشومة بعهر مزمن، عهر معتّق من زمن سومر، ذلك العهر المُشّفر يحتاج الى خبير أستراتيجي ليتمكن من وضع توصيف لائق له، ملامح القوّادة ونظراتها كانت تمثل لي انتفاضة نفسية عنيفة تجعلني الوذ بمغارات التخّيل...

المرّة الأولى التي جرّبت فيها الدخول الى بيت دعارة كانت بصحبة أحد الاصدقاء وقد كانت بمثابة الخيط الذي شدّني الى الاشتهاءات الشاذة، في ذلك اليوم الشاذ كنت في غاية الغرابة، غريباً في نظر الجميع، عندما قلت لصديقي:أريد هذه.. وأشرت الى أمراة ذات مواصفات غير معهودة، طويلة القامة، ذات نظرات شرسة، ملامحها تزرع الرهبة في نفس المقابل، عمرها في نهاية الاربعينات أو بداية الخمسينات، سمعت بعض من في البيت يناديها (أُم حَكَم)..

مكتبة الفكر الجديد

اريد أم حَكَم، كررت ذلك على صديقي الذي أبتسم حينها وأخذني على جانب ليقول لي بأن هذه هي القوّادة وأن لها مهمة أخرى في هذا البيت وإنها لا تقدم هكذا خدمات للزبائن.. وقتها كنت عبارة عن كتلة صماء، مُكوّن صخري مغّلف بالرغبة، صاروخ شهوتي حدّد هدفه ولا يمكن لأي قوة أن تغير مساره، قلت لصديقي أريدها، أبتسم صديقي وقال لا ضير من المحاولة سأتحدث اليها ربما توافق...

راقبت صديقي وهو يقترب منها بوجل ويتكلم معها بصوت خفيض وكأنه يعقد معها صفقة سرية تتعلق بأمور محضورة دولياً، حين أشار اليّ سارعت بالتوجه نحوهما وعندما أصبحت قُبالة أم حكم نظرت لي نظرة ماكرة وأبتسمت وقالت: اطلع برّه ..

في الخارج، وأنا أعيد على نفسي عبارة أم حَكَمْ ادركت حقيقة كانت غائبة عني، حقيقة تتعلق بالحجم، جرذ صغير، نعم جرذ مغرور يطمح أن يحكم العالم، وقد تحطمت طموحاته عند صخرة أبتسامة أم حَكَم، تلك الابتسامة اللئيمة أشعرته بحجمه الحقيقي وأفشلت مخططاته وأعادته الى جحره، الجملة الصغيرة التي اطلقتها بوجهي تلك القوّادة كان لها معنى واحد غير قابل للتأويل وهو إنني مطرود من هذا الوجود ...

لم اكرهها بسبب ما قامت به، لم أحقد عليها، ولكني تمنيت لو إنها عاملتني بطريقة أخرى، ان تكون قد قامت بفعل آخر تجاهي، فعل أكثر عنفاً، أكثر رعونة، أكثر عهراً، ان تصرخ بوجهي مثلاً، ان تقول لي يا حقير، ان تبصق على رجولتي، ان تشتم اشتهاني المخالف لقوانين الدعارة، ان تضربني بحذاء دعارتها، ان ترميني في بالوعة الانعتاق، ان ترفسني على مركز تهوري..

مكتبة الفكر الجديد

أكثر شيء تمنيته منها هو الضرب، لا أعلم ما سبب ذلك، ربما يكون ذلك رغبة مني في جلد الذات، وقد يكون ذلك تحايلاً لأجل الهروب من آثار الفشل، عموماً إنها مازوخية دعارتي التي صرت أطلبها لا ارادياً، صرت أبحث عنها بشبق اسطوري، وقد تمكنت من نيلها بعد ذلك...
لقد حققت رغبتي المازوخية وليس الاشتهائية بعد ان خضت المغامرة بمفردي هذه المرة بدون وجود صديقي الذي شهد خيبتي الاولى...
دخلت بمفردي الى بيت آخر من بيوت الدعارة وأفصحت عن رغبتي وحصلت على (النعال) الذي كنت احلم به...
يا آلهي كم كان لذيذاً...

- 8 -

لقد تغيّرت مفاهيم الحياة لديّ، صرتُ أشبهّها بنعال تلك القوّادة التي لم أتمكن للأسف الشديد من معرفة إسمها، من لم يشعر بلذة ذلك النعال لا يمكنه القول بأنه قد عاش، العيش له معنى واحد في نظري، أن تشعر بلذّة الألم، الأحساس الصادر من ذاتك العليا وأنت تتوجع تحت ضربات الأحذية القدريّة...
أن تُعيد إنتاج المعنى الخاص بحياتك فذلك يستلزم أن تضع القدر في خانة السياقات الأعتباطية وأن تسمح لأحذية كل قوّادات العالم بممارسة الدعارة على رقعة وجهك...
أنا كالآخرين، من حقي أن أهذي... أليس كذلك؟
من حقي أن أختار الطريقة التي تلائمني للتعبير عن نفسي..

مكتبة الفكر الجديد

انا قوّاد، لذا سألجأ الى الأستمناء الوجداني، يحق لي أن أنمو مع البذاءة التي تحاصرني وأن اضمحل مع البراءة الذاوية في كأس التلاشي، يحق لي أن أنزوي في مناطقي السرية لأضاجع أوهامي، ان احوّل مسار لفظة (تفضل) وأجعلها باتجاهي أنا فقط هذه المفردة الخبيثة التي دجّنتها في قفص لساني كأداة تمكنني من توضيح أمر مهم بالنسبة لي وهو أني ما زلت موجوداً....
أنا كالآخرين، من حقي ان أهذي، يحق للعابي أن يسيل أمام المغريات، من حقي أن أستلقي على ظهري وأقول للأحلام أجلسي على مناطقي الحرّكية، لست كائناً مشلولاً، أمتلك العديد من مناطق القوة، مناطقي الأنفجارية لابد أن تثور في النهاية لتُعلن عني...
أنا الذي تأكل كل شيء بداخله، كل الأشياء فقدت قيمتها ودلالاتها، البيوت، الشوارع ، الوجوه، المقاهي، الدين، الحياة، الشرف، الموت، هذه الاشياء بتُ أركّبها مع بعض فيكون الناتج شيئاً هلامياً يشبهني لدرجة التطابق، أنّه العدم.
هذا هذيان، وأنا من حقي أن أهذي، من حقي أن اخرّب المعنى الذي لا يناسب عُهري، أن اقلب المفاهيم، أن ألغي واشطب وأمسح وأغيّر وأمزّق وأبعثر وأنمط وأحيي وأميت واستعيد وأبدّل...
اه يالهذياني المر...
لقد غيرت رأيي، أنا لا أرغب بذلك كله، أنا أطمح بشيء واحد فقط أريد أن أمسح صورة (كريم) القديمة من ذهني، أمسحها واضع بدلاً عنها صورة جديدة، أن ارسمه برؤية سريالية كعلامة أنتصاب هائلة تعارض الأسترخاء...
عذراً صديقي كريم تعال الى مبغاي وأختر ما يناسب حرمانك وشهوتك المقتولة، أنت الوحيد الذي يقف صلباً أمام نزواتي

مكتبة الفكر الجديد

التخريبية، الوحيد الذي لا أمتلك الجرأة الكافية لتخريب المعنى المتعلق به في منظومتي الفهمية....
أنا الآن خارج سلطة الرقيب بكل تمظهراته، أنا أهذي، أستمني وجدانياً، لذلك سأصّورك كاملاً، بدون أي نقص، بجسمك الموافق للإرادة الآلهية، برجولتك الصالحة للحياة، بشرايينك النابضة، بتوجهاتك المعاندة للخراب وروحك المعادية للموت...
كنت الشاهد الوحيد على تلك الخيبة الأسطورية والأنكسار التاريخي الذي كانت أُم حَكَم بطلته وأنا ضحيته، يومها أردت لي أن امارس رجولتي للمرة الاولى، ها أنا اليوم أحاول أن أكون الشاهد على هروبك من خيبتك المستديمة وإنكسارك المُعَمر..
أتذكرك الآن وأنت تملأ الشارع ضحكاً، كنت تضحك مني لأنني كنت شاذاً حين تركت العاهرات وأردت مضاجعة القوّادة، في ذلك اليوم غضبت منك وشتمتك في داخلي ولكني اليوم أشعر بالأسف، أعتذر منك وأسامحك على ما فعلت، أرجوك ان تضحك الآن، أضحك بكل ما تملك من قوة، هذا الوجوم لا يناسبك يا صديقي، أضحك لإغاضة الشظية التي بترت عضوك التناسلي، أضحك لإغاضة العدو الذي أراد بتر تناسل أحلامك، عليك ان تضحك نكاية بالحرب اللئيمة التي حاولت وضع شهواتنا في ثلاجات الطب العدلي وإجبارنا على تطليق الحياة طلاقاً خلعياً وان نتوقف عن الاحتلام...
عضوك الصغير الذي صنع له تاريخاً كبيراً أين هو الآن؟ لماذا تركته في الارض الحرام؟ أتتوقع ان يكون قد وقع أسيراً بيد الاعداء؟ هل شاهده أحد محبيك أو أصدقائك في برنامج (صور من المعركة)...
عموماً... لا يصيبك الحزن يا صديقي، هو الآن في منزلة الشهداء..

مكتبة الفكر الجديد

أنا أعرفك جيداً وأعلم بأن أكثر شيء تكرهه هو الهزيمة، أنت تمتلك أسلوبك الخاص في خلق معاني الأنتصار، هذا ما جعلك تُبقي عضوك منتصباً هناك في الأرض الحرام، ربما يضحك القدر من هذياننا هذا ولكنها الحقيقة يا صديقي...
لقد بقي منتصباً رغم كونه مبتوراً من الأصل، من خلاله أرسلت الى الجميع رسالة واضحة مضمونها أننا جيل لا ينحني، جيل قائم يكره التذلي، عضوك الشهيد كان الأيقونة الدالة علينا، يا لإيثارك، يا لكرمك، لقد تخلّيت عن أعز ما تملك لتذل علينا، أنت في غاية الأيثار يا صديقي، بعض زملائك تركوا في الارض الحرام أجزاءاً من أجسادهم، أيادي، أرجل، أصابع، قطع لحمية صغيرة، ولكنك كنت مختلفاً، إختلافك يتمثل بكونك قد تركت شيئاً لا يمكن الأستغناء عنه، انت كريم في الدنيا وسعيد في الآخرة...
في اللقاء الأول الذي جمعني بك بعد عودتك من الجبهة منزوع الذكورة لاحظت في تقاسيم وجهك أشياء غريبة وأكتشفت فيك أموراً لم أعهدها بك من قبل، تلك الأمور جمعيها تتعلق بالمستقبل، ليس مستقبلك أنت، فأنت قد حسمت أمرك، وإنما مستقبل من ضحيت لإجله بأعز ما تملك.
قالت لي ملامحك بأنك قمت بإهداء عضوك الى الوطن، ثم اضافت تسبيباً لذلك، وهو أنك كنت تخشى عليه من الإصابة بالعنّة، أردت له أن يواصل مضاجعة الحياة وان لا يقال عنه بأنه فاقد لذاته الشهوانية، عزّ عليك أن يكون وطنك عنيناً...
اردت أن تخبرني بكل ذلك ولكن ملامحك كانت تخبّي أشياء أخرى، هذه الاشياء حجز القلق لها مساحة كبيرة في في تلك الملامح، كان قلقاً إرتخائياً، ريبة غامضة تفسيرها الدقيق: إنها ريبة الأحتمالات، كل الأحتمالات المتعلقة بالخيانة..
إيّة خيانة؟ أستطيع أن أجزم بأنك كنت تخشى من شيء واحد

مكتبة الفكر الجديد

فقط وهو ان يضيع انتاجك الحيمني وان يُنسب فعلك الى الغير بعد ان تسرق تضحيتك الأنتصابية....
في أحد الايام، وبعد انتهاء الحرب، تخيّلتك واقفاً على الحدود تراقب عودة الاسرى، في زحام تلك الحشود المتراكضة نحو الوطن كنت تنتظر غائباً ما، كانت نظراتك المنكسرة محاذية للأرض، يالهُ من أمل شيطاني جارف ذاك الذي دار برأسك، هل حدث هذا فعلاً، أم إنّ ذلك من إنتاج عقلي المتماهي مع دراما الحروب الطويلة...
صديقي... أنا أهذي والهذيان هو موازاة أخرى للحقيقة، كنت محقاً، إن خشيتك في محلها، عليّ ان اشاركك في هذا الإرتياب الوجودي، أنه الخوف من التوّحد مع ذلك القرين الذي يُدعى الوطن، أن نتقاسم معه العجز الجنسي، أن نكون كائنات مضحوك عليها، يلعنها الوجود لأنها بقيت أسيرة الرعشة الكاذبة، أن نقف على تل الخيبة، نشاهد كل شيء يتناسل ونحن نتفرج....
حسناً فعلت يا صديقي حين غادرت الوطن، تحاشيت بذلك الإطلاع على ما كنت تعتبره مصدراً لقلقك، من حسن حظك إنك لم تعش مرحلة العنّة الوطنية، ليتك أخذتني معك الى هناك.. حيث لا وطن...

- 9 -

الهروب على جسد أنثى...
هذه العبارة هي العنوان المناسب لما حدث بالأمس..
مغادرة الدنيا بالطريقة التي حدثت يوم أمس في هذا المبغى

مكتبة الفكر الجديد

أمرّ أثار ضجة في ذهني، ضجة أكبر من الضجة والهلع التي أثارها في نفوس المتواجدين داخل البيت...
رجل متوسط العمر يموت على صدر عاهرة، يا لهُ من خروج عظيم على النص، أو بالأحرى خروج على ضوابط الموت...
كان موتاً سريالياً، رحيل بأسلوب ما فوق الواقع، تمرد على الثوابت الانتقالية، ذلك الرجل أتخذ من الجسد الانثوي الناعم واسطة نقل عبر بها من عالم الى عالم آخر وكأن ذلك الجسد بساطاً سحرياً قد طار به الى الآخرة...
لم أسأل عن تفاصيل ما حدث، ألقيت نظرة سريعة على جثة الميت، كان مسترخياً ونظراته تشي برضا عميق، عدتُ أدراجي لأكوّن تفاصيل الواقعة بالطريقة التي تناسب مزاجي، لابد أنّه قد تناول جرعة من اللذة تفوق قدراته...
هل هذا إنتحار من نوع خاص؟ انتحار باللذة، أن تموت وأنت ملتحم بالجمال وأن يتوقف قلبك وأنت في مرحلة الذروة وتنقطع أنفاسك وأنت تمارس الحب..
يمكنني القول إن ما حدث هو قطع غير مبرمج لتيار الحياة، مفاجئة ربانية، قفشة من قفشات الرب أراد بها مداعبة خيال عباده، أو دعوتهم الى سلوك عاطفي مركب يختلط فيه الضحك والبكاء...
هذا هو الالتزام الجامع للغرابة التي يمكن نسبته الى هذا الوطن حصرياً، يا ألهي كل شيء مرتبط بالوطن، هذا الوطن الغريب في كل شيء حتى في طرق الموت وطقوس مفارقة الحياة...
ما حدث هنا من موت غريب يمكنني إعتباره الاحتجاج الأعظم أو التمرد الأكبر على آليات الموت الكلاسيكية، واقعة موت ذلك الرجل أتخيلها مسرحاً كبيراً، القاعة مكتظة بالجمهور،

مكتبة الفكر الجديد

كل أموات وضحايا الوطن جاءوا ليشاهدوا العرض الاول، كل واحد من المشاهدين يحمل معه ميتة خاصة، لكل واحد منهم طريقة معينة تم بها حصاد روحه، إننا الشعب الوحيد الذي يحمل صفة الفنان، تفننه ليس في قضايا الوجود وإنما في قضايا العدم،أنه الخزين المعرفي لثقافتنا تجاه الفكرة، فكرة الذهاب نحو اللاشيء..

بدأ العرض، الجمهور يحمل في مخيلته نهاية ما لبطل المسرحية، الكل يتوقع إن تلك النهاية ستكون مطابقة لما مخزون في وعي تصوراته، طرق الموت الموزعة على أذهان الحاضرين كانت فعّالة جداً وتحاول تسيير أحداث المسرحية، التصورات الخاصة تجّسم إفتراضات إستباقية لقصة المسرحية، أو قراءة نصية مبنية على أعتبارات خاصة مستمدة من ميتة خاصة، الاعدام شنقاً، الاعدام رمياً بالرصاص، أو الاعدام رمياً بالحقد، إنها النكهة المأساوية المتعلقة بموتنا نحن فقط..

في الصف الأخير من القاعة كان هناك ميتات أخرى تقافزت من أذهان بعيدة عن خشبة المسرح، أسفار بشعة يبتكرها الوطن خصيصاً لأبنائه، الموت ذوباناً في التيزاب، الموت في ماكنة ثرم اللحوم، الموت سباحة في نهر جاسم[3]، أو الموت الرحيم بحقنة طبية طائشة...

ما أكثر أساليب الموت في هذا الوطن المعطاء، لقد مُتنا بكل الطرق، أتخيّل الجثث المرمية في الصحراء وهي تُنهش من قبل الكلاب المترحمة على آلهة الحروب، أو الجثث المتزاحمة مع أكوام النفايات...

كل هذه الميتات الكلاسيكية تم عبورها والخروج عليها في هذا المبغى، آخر تقليعة للموت العراقي أُنتجت هنا، في غرفة اللذة، على صدر عاهرة...

مكتبة الفكر الجديد

الا يستحق هذا المتمرد الذي مات في مبغاي براءة أختراع، هو صاحب السبق في إعادة صياغة المعنى وإخراج الفعل من المفهوم الاصطلاحي الى المفهوم الفني...
أمضى مزاجي عدّة ساعات لإعادة إنتاج ما حدث، ولكن هل بإمكاني أن أعرض ما انتجه ذلك المزاج أمام قاضي التحقيق.

- 10 -

في أحد المساءات، بعد نهاية يوم مليء بالعمل لاحظت وجود ظاهرة لم أنتبه إليها من قبل، وأنا أتفقد الغرف شاهدت وجود كتابات على اغلب جدران تلك الغرف التي تُمارس فيها اللذة، لم أجد ميلاً للاطلاع على مضمون تلك الكتابات ولم أشأ ان أضيّع وقتي في قراءتها، من المؤكد أنها مجرد عبارات عديمة الجدوى لا تستحق ان أمنحها شيئاً من وقتي بالاضافة الى كوني اعتقد بأن الكتابة على الجدران ظاهرة غير حضارية وهذا ما جعلني اتخذ قراراً بمنع هكذا ظاهرة في مبغاي، في اليوم التالي قمت بتعليق يافطة كبيرة في مدخل المبغى تضمنت منع الكتابة والخط على الجدران...
يقال أن كل ممنوع مرغوب، هذا ما تأكدت من صحته وأنا الاحظ أزدياد نسبة ما يكتب على جدران مبغاي بعد أعلان قرار المنع، هذا الاصرار على مخالفة الممنوع ولّد بداخلي فضول الاطلاع على مضمون تلك الكتابات...
أنتظرت وقت نهاية العمل وبعد ان تأكدت من خلو البيت من العاهرات والزبائن قمت بإقفال الباب جيداً وتوجهت الى القراءة:

مكتبة الفكر الجديد

(كلنا حمقى.. نامي أيتها العاهرة لنشهد الرب على حماقاتنا عساه يفهمني كما تفهميني أنتِ)
(الحياة سوء فهم متبادل.. من يقرأ هذه السطور عليه ان يؤمن بذلك)
(آن الاوان.. للاستفسار اتصلو على هذا الرقم.. اخوكم عرندس)
(كلكم تحت حذائي)
(أنا ـ س ـ لا أعرف من اين أتيت.. قالت لي أمي: اذهب للبحث عن أبيك.. حين وجدته أخبرني بأنه لم يتزوج طيلة حياته وأضاف: ولكنك تشبهني أذهب وقل لأمك بأن الصدفة خير من الف ميعاد)
(اللعنة عليك يا عضوي... لقد خيبت أمل البشرية)
(هنا.. عند منحدرات التلال.. أمام الغروب وفوهة الوقت.. نفعل ما يفعل السجناء.. وما يفعل العاطلون عن العمل.. نرّبي الأمل)
(بعد ما روح أنتخب... تدري ليش.. لان شلت الحاء من كلمة حزب)
(الجنس للحمير)
(أنهضي يا عزيزتي.. لقد انتهى كل شيء.. علينا ان نلحق بالقطار)
(قولي أحبك كي تزيد وقاحتي)
(والله خسارة)
(اوصيكم بالقحبة خيراً)
(إياكم ومصادقة الغرباء فأنهم دائماً على رحيل)
(أغبى رجل في العالم من قام بفتح الباب لشهواتنا)
(غداً سأمضي الى الجبهة.. ربما سيكون مسقط راسي هناك)
(ذكرى سليم مع أروع عاهرة في هذا الوطن)
(كش وطن)
العبارة الاخيرة هي الوحيدة التي تصرفت بها، لقد اضفت ثلاثة نقاط الى الكلمة الاولى منها...

مكتبة الفكر الجديد

ـ الى مؤسسة الشهداء...
هذا ما قلته لسائق التاكسي حين سألني عن الجهة التي أروم الذهاب إليها، إتفقنا على الأجرة الواجب عليّ دفعها، على خلاف السائد فتحتُ الباب الخلفي للسيارة وجلست بهدوء، حاجتي إلى العزلة دفعتني إلى القيام بذلك، هنالك أشياء مبعثرة في ذاكرتي أريد أن ألملمها وأنسق محتواها...
بعد مسافة قصيرة سألني السائق عن مكان تلك المؤسسة بالتحديد، أجبته بأني لا اعرف مكانها بالضبط ولكنها من المؤسسات الجديدة التي تم إستحداثها بعد التغيير، كنت قد سمعت بتلك المؤسسة واطلعت على قانونها الذي يتضمن في أحكامه مواداً شرّعت لضمان حقوق كل من تم إعدامه من قبل النظام السابق...
منذ اليوم الذي طالعت فيه ذلك القانون وأنا في حالة من عدم الارتياح، هنالك حادثة قديمة تجوب في أروقة عقلي توخزني في منطقة حساسة تدعى الضمير وتطلب مني أن أؤدي واجبي تجاهها...
تركت أمر تحديد موقع المؤسسة إلى سائق التاكسي ورحت أعيد ترتيب أوراقي الاستذكارية، المهمة التي أقوم بها تحتم علي أن أكون دقيقاً، عليّ أن اضبط تفاصيل الواقعة لكي أكون أميناً في نقلها، إنها حقوق ناس، هذا اليوم بالنسبة لي يوم غير عادي، هو اليوم المخصص للضمير..
بالأمس حاولت أن أقوم بتدوين بعض التفاصيل على الورق حتى لا يفلت شيئاً منها من ذاكرتي ولكن تلك المحاولة

مكتبة الفكر الجديد

أحبطها إزدحام العمل، كثرة الزبائن حالت دون ذلك، يوم أمس كان مزدحماً بطالبي السعادة، كل ما تمكنت من فعله هو تهيئة اللافتة المخطوط عليها عبارة (مغلق) استعداداً لتعليقها على باب المبغى..

من نافذة السيارة رحت أتمعن في معالم مدينتي، لم تكن مدينتي، في ملامحها أشياء كثيرة تختلف عن الصورة التي احتفظ بها في مخيلتي، رأيتها بصورة امرأة عجوز فقدت من جمالها الشيء الكثير، كل المدن يزداد جمالها كلما تقدّم بها العمر، مدينتي هي الوحيدة التي تخالف تلك القاعدة...

لاحظت بروز العديد من الدوائر ذات المسميات الجديدة التي لم يكن لها وجود في السابق، كنت أترقب التقاط الاسم الذي يعنيني في وسط هذا التراكم من المسمّيات المتزاحمة، توقف السائق أكثر من مرة مستفسراً عن المكان الذي نبغي الوصول إليه...

الشهداء.. الشهداء، ما أكثر الشهداء في هذا الوطن، كان السائق يردد هذه العبارة وأنا أنصت أليه واكتفي بالصمت، مفضلاً ذلك كردّة فعل من يتجنب الدخول في نقاشات لا يعرف عقباها، بداخلي كنت أعقّب على ما يصدر من السائق، طرحه كان واقعياً، كان تعقيبي يتلخص بأن لكل مرحلة شهدائها ولكل سلطة معاييرها لتحديد من يستحق صفة الشهادة، وجدت انه من الأجدر أن أحذف هذا التعقيب من القصة التي سارويها أمام الموظف المختص في مؤسسة الشهداء...

بعد رحلة قاربت الساعة في بحر الازدحامات والأسئلة وصلنا إلى المكان المنشود، بناية تتكون من عدة طوابق تعلوها قطعة كبيرة تحمل عنوان (رئاسة مجلس الوزراء / مؤسسة الشهداء)، بعد تفتيش دقيق في بوابة البناية دخلت

مكتبة الفكر الجديد

الى قاعة كبيرة كانت مكتظة بمراجعين أغلبهم من العنصر النسوي، توجهت مباشرة إلى موظف الاستعلامات، سلّمت عليه وردّ السلام دون أن يرفع رأسه، رفعت صوتي لكي اجبره على النظر إليّ وقلت:

ـ اخي ممكن أقابل مدير المؤسسة..

ـ لماذا..؟

ـ لدي معلومات مهمة أريد أن أوصلها إليه...

ـ اكتب ما لديك بورقة ونحن نوصلها عن طريق البريد الرسمي...

ـ لا يمكن ذلك، يجب ان أوصل المعلومات بصورة مباشرة..

رفع ذلك الموظف سمّاعة الهاتف المركون الى جانبه وطلب رقماً واعلم الطرف الآخر من المكالمة بطلبي ثم قال بعد أن أغلق السمّاعة:

ـ عليك الانتظار لحين ورود الرد من مكتب المدير.

توجهت الى أحد الكراسي الفارغة وجلست قانطاً أنظر إلى وجوه الحضور، القنوط هو العامل المشترك بيننا، من المؤكد إن جميع المتواجدين في هذه القاعة قد جاءوا الى هنا لسبب واحد فقط هو الرغبة في إدخال احد الضحايا في السجلات الرسمية لهذه المؤسسة..

على جدران المؤسسة وممراتها هناك العديد من الصور القديمة بعضها بالأبيض والأسود وبعضها الآخر بألوان باهتة كلها مذيلة بمعلومات مقتضبة تتضمن أسم صاحب الصورة وتاريخ إعدامه، تمعّنت في الوجوه الحزينة المحبوسة في إطارات تلك الصور وسئلت نفسي: هل سأنجح في إضافة صورة جديدة إلى هذه الصور؟

بعد حوالي خمس دقائق أشار لي موظف الاستعلامات وقال:

ـ تفضل إلى مكتب المدير..

مكتبة الفكر الجديد

في غرفة المدير المؤثثة بصورة باذخة، جلست قبالة رجل أصلع بلحية خفيفة وملامح جامدة، قارنت صورته بالقطعة المبرّوزة المعلّقة خلفه والمكتوب فيها (دماء الشهداء أمانة في أعناقنا) ولم احصل على نتيجة واضحة، قال لي حال استقراري على الكرسي المنصوب أمام مكتبه الفخم:

ـ ما هي طبيعة المعلومات التي تريد ان تدلي بها؟

ـ المعلومات التي لدي تتعلق بأحد ضحايا النظام السابق، امرأة بريئة أعدمت بصورة وحشية بصورة علنية وأمام مرأى ومسمع الناس وأنا كنت احد الشهود..

ـ ما هي مصلحتك في تقديم هذه المعلومات، هل تربطك صلة قرابة بالضحية؟

ـ شخصياً لا تربطني بتلك المرأة أي صلة لا من قريب ولا من بعيد ولكنني حين اطّلعت على قانون مؤسسنكم وجدت ان أحكامه تنطبق عليها لذلك الزمني ضميري ان اقدّم ما لدي من معلومات لكي تتم المصادقة على اعتبارها احد ضحايا النظام السابق.

ـ أنت هنا أذن لتقدم شهادة؟

ـ نعم.

ـ في هذه الحالة علينا إحالة الموضوع الى القاضي المختص لتدوين شهادتك اصوليا، هل أنت مستعد لذلك؟

ـ نعم أنا على أتم الاستعداد..

ما قاله ذلك المدير زاد من اندفاعي لإتمام ما بدأت به، إنها مقدمات تبشر بخير، الأمور تجري على ما يرام، لقد قطعت شوطاً مهماً في المهمة التي جئت من اجلها، لا شك إن شهادتي ستكون كافية لإقناع القاضي بمظلومية تلك المرأة واستحقاقها صفة الشهادة..

تمر دقائق أكون بعدها مباشرة في غرفة القاضي، شاب

مكتبة الفكر الجديد

بمظهر جميل، وسامته وأناقته المبالغ فيها لا تناسبان هذه المهنة الصارمة، الى جانبه يجلس موظف يتولى تدوين ما يتلوه عليه، طلب مني بطاقتي الشخصية وأوعز الى كاتب الضبط لتثبيت بياناتها في المحضر، بعد ان فرغ الكاتب من ذلك وأعاد لي بطاقتي نهض القاضي من كرسيه وقال لي:

ـ ضع يدك اليمنى على المصحف..

لم افهم ماذا يريد من ذلك، لاحظت ان الكاتب قد نهض من كرسيه أيضا، وضعت يدي اليمنى على قطعة خضراء موضوعة على مكتب القاضي، عندها طلب مني القاضي أن ارّدد ورائه:

ـ اقسم بالله العظيم أن اشهد بالحق.

شعرت بالإحراج، أنا لا أؤمن بهكذا طقوس، رغم ذلك رددت العبارة حرفياً لعلمي ان ذلك من الشكليات الواجب إتباعها وفي حالة امتناعي عن أدائها فأن شهادتي ستقابل بالرفض، ما يهمني هو إني سأكون صادقا فيما أقول سواء بيمين أم بدون يمين، عاد القاضي وكاتبه الى جلستهما وبقيت أنا منتصبا أمامهما أنتظر إعطائي الضوء الأخضر للمباشرة بالكلام، قال القاضي:

ـ ما هي المعلومات التي لديك؟

ـ في احد الأيام من تسعينات القرن الماضي، وفي المنطقة التي أسكن فيها حدثت واقعة مؤلمة، رغم مضي مدة طويلة على تلك الواقعة إلا إنها ما تزال تعيش في ذاكرتي، كنت ماراً بالصدفة فرأيت أهالي المنطقة متجمهرين أمام احد البيوت، قرب ذلك البيت شاهدت عدة سيارات يبدو أنها تعود لإحدى السلطات الأمنية، عددها على ما اذكر ثلاثة أو أكثر، كانت هنالك مسافة فاصلة مابين الناس وبين تلك السيارات المحيطة بالبيت، لاحظت انتشار أشخاص مدججين بالسلاح

مكتبة الفكر الجديد

جميعهم يرتدون ملابس سوداء ويغطون وجوههم بطاقيات سوداء لا تظهر سوى العينين فقط من داخل البيت تنطلق أصوات صراخ نسائي وضجة كلامية لم استطع تمييز مفرداتها، أما في الخارج فكان التزام الصمت هو السلوك العقلاني لمن يرغب بمعاصرة الحدث، الكل يلوذ بالسكوت، جميع الحاضرين يمارسون نشاطا مشتركاً هو النظر فقط، ماذا يجري.. لا احد يعلم !

لا يجوز لأحد التدخل، لا احد يمتلك حق السؤال عما يجري، ما مسموح به هو التفرج وإغلاق الفم، كنا متفرجين محايدين، نتفاعل مع ما يحدث بحاسة واحدة فقط هي العين، بقية الحواس كانت خارج الخدمة، اللحظة الرهيبة التي زرعت الرعب في نفوسنا عشناها بخوف شديد وذلك عندما فُتح باب البيت وظهر أمامنا احد المُلثمين يسحب امرأة من شعرها ويجرجرها على الأرض يساعده في ذلك بعض زملائه وهم يرددون شعارات تتغنى بالله والوطن والقائد...

تشبثت تلك المرأة بالباب وهي تستغيث بأعلى صوتها، كانت تستحلفهم بالله ان يرحموها، داخل البيت هناك أصوات تتعالى تحمل نفس النبرة الاستعطافية، جرت الأحداث بصورة سريعة، لقطات متتالية كنت أشارك غيري في التقاطها وتخزينها بهدوء مُخزي، لقد تشاركنا في المشاهدة والمحايدة والذهول، ذروة الذهول تحققت حين رأينا احد الملثمين يستل سيفاً، رأينا التماعته وهو يرفعه الى الأعلى، ما الذي ينوي فعله؟ ارتجف السؤال في صدورنا...

قام أربعة من زملائه بتقييد حركة المرأة وهي ملقاة على الأرض حيث جثم كل واحد منهم على احد أطرافها الأربعة، لم تكن تملك أيّة وسيلة دفاعية سوى صوتها الذي بدأ يضعف شيئا فشيئا، كان صوتها يضعف وقسوتهم تكبر، لم يكن

مكتبة الفكر الجديد

احد منا يتوقع ما حدث، إنها المرة الأولى التي نعيش فيها هكذا حدث، منظر السيف وهو يرتفع الى الأعلى ويهوي على رقبة المرأة جعل اغلب الحاضرين يهربون من ساحة الواقعة، أنا وعدد قليل احتفظنا بشيء من الشجاعة وبقينا نراقب ما يحدث في هذا اليوم المجنون...
انخفض مؤشر شجاعتي إلى درجة الصفر وأنا أرى الرأس يتدحرج على التراب، انفصل الرأس عن الجسد وسالت الدماء لترسم خطاً بيانياً يربط بين الاثنين، ما أثار فزعنا ان عيون المرأة المذبوحة كانت مفتوحة وتنظر إلينا، كم هي مخيفة نظرات الميت !
حين قام صاحب السيف برفع الرأس وصاح (الله اكبر) شعرت بأننا لسنا مخلوقات الله، نحن مخلوقات رب آخر غير متواجد هذا اليوم، استغل الذبّاحون غيابه وفعلوا فعلتهم...
الصرخة الأخيرة التي أطلقتها المرأة المذبوحة ما زالت ترّنُ في أذني الى الآن، صرخة مبتورة لم يمنحها سيف ذلك الملثم فرصة الاكتمال، لحظة رفع الرأس الى الأعلى لمحت شيئاً غريباً، شفتا الضحية تتحركان ببطء، ماذا كانت تقول، لا أحد يدري...
الدماء التي سالت أمام عتبة البيت لم يتجرأ احد على إزالتها، بقيت العتبة ملطخة بدماء السيدة المنحورة الى أن تيبس ذلك الدم وتفتت بفعل حرارة الجو، في الأيام التي تلت تلك الواقعة كنت أمّر من أمام البيت وأعيد السيناريو بذهني، أعيده بنفس التفاصيل، الاختلاف الوحيد الذي طرأ على الموضوع هو المعلومة التي حصلت عليها من احد الحاضرين والتي زودني بها همساً بعد ابتعادنا عن محل الحادث، تلك المعلومة أصبحت عنواناً أولياً للسيناريو الذي راح يتكرر يومياً في ذاكرتي، المرأة التي تم ذبحها كانت قوّادة.

مكتبة الفكر الجديد

- 12 -

أصبحت أمتلك قلب قوّاد، قلب مشحون بكل شيء، أقصد باللاشيء، أبسط ما يقال عن ذلك القلب بأنه يتسع لكل متناقضات العالم، كل المفاهيم المتضادة أنحشرت فيه، هذا ما أردت قوله للجميع، هذا ما أردت قوله لصديقي كريم الذي أرسل لي رسالة أبلغني فيها بأنه سيعود قريباً الى الوطن..
سيعود ليجدني شخصاً آخر، قد يُصدم بالواقع الجديد الذي سيجدني فيه، رسالته جعلتني في حيرة من أمري، وقعت أسيراً للفرضيات، ماذا سيكون رد فعله حين يراني كائناً ملعوناً في نظر المجتمع والدين والقبيلة، هل سيقف في صف اللاعنين أم إنه سيقف مع أنسانيتي الملعونة..
سيعود ليجدني قذيساً يطبخ اللذة في مطعم الآلهة الداعرة، سيجدني إيقونة على سطح مكتب الوطن، أو فارزة صغيرة بين كلمات متلاعنة، سيجدني مثقف عضوي في البيئة الفكرية اللاأخلاقية، سيجدني مثقف لا عضوي في البيئة الفكرية الاخلاقية، أنا القوّاد المثقف الواقف في المنطقة الفاصلة بين ماهو أخلاقي ولا أخلاقي، متسمراً في هذه المنطقة متجرداً من أي قيمة وخالياً من أي ديانة، شيئاً إحتمالياً يحب التأويل، بوذياً، زرادشتياً، هندوسياً، مسلماً، مسيحياً، يهودياً، ذلك لا يهمني أنا اكره الاديان..
ما أطمح إليه هو أن يسمح لي الرب بلقائه وأن يمنحي الفرصة لأقول له شيئاً يجول بخاطري، شيئاً بسيطاً لن يكلفه كثيراً من وقته الثمين، أنا القوّاد سليل المنبوذين والمطرودين من جنتك أريد أن أكون قريبا منك...

مكتبة الفكر الجديد

يا آلهي أنا خيبتك الكبرى وإحتمالك الذي لم يُقرأ لحد الآن أريد أكون في حضرتك، أسمح لي أن اقوم بذلك أصالة عن نفسي ونيابة عن كل قوّاويد العالم وعاهراته..
أسمح لي أن أكون رسول أهل الخطايا ونبيهم، هل يتسع صدرك لنا نحن المطرودين من فردوسك، إمن الممكن أن تمنحنا لحظات من وقتك، نحن مخلوقاتك النزقة لنا الحق بأن نقترب منك.. اليس كذلك يا الهي؟
غداً أو بعد غد سيعود كريم من منفاه، سيعود وسيجدني كتلة من التنافر، مجرد مهّرج مطرود من سيرك العائلة، متسول يبحث عن رصيف يأوي موبقاته، تلك العودة قد تكون مصحوبة بالمفاجئات، ربما يكون صديقي قد وجد حلاً لخيبته، من المحتمل أن يكون الغربيون قد ركبّوا له عضواً إصطناعياً فيه شيء من النبض والحياة، ذلك ممكن جداً إنهم يستطيعون فعل أي شيء، إن فاجئني بذلك سأقابله أنا بمفاجئة ايضاً...
إن عاد صالحاً للحياة سأمنحه حق مضاجعة أي عاهرة تعجبه ولكن بشرط شرطي الوحيد هو أن تكون تلك المضاجعة على مرأى ومسمع الملك فيصل، سألزمه ان يفعل ذلك أمام صورة جلالة الملك، أريده أن يُخبر الملك بأن أبناء دولته باتوا يمارسون الحياة بأعضاء إصطناعية مستوردة، نعم مستوردة يا جلالة الملك أتدري لماذا، لأنهم تعرضوا الى بتر أحلامهم وبعد ذلك تم رميهم في سلة المنافي...
بعد المضاجعة المشهودة سأدعوه الى ركوب قطار الذكريات والعودة الى محطات الماضي، سنرحل أنا وهو الى قرانا القديمة، أيامنا الاولى،أيام التسكع وإستهلاك المقاهي والشوارع الخلفية الخالية من إعين الرقباء، أيام الأكلات الرخيصة والكتب القديمة، تلك الكتب التي كانت تمثل لنا

مكتبة الفكر الجديد

المهرب الذي ننفذ من خلاله من ثقوب الواقع المرير، كنّا نغافل الظروف ونشاكسها بطرق ملتوية في سبيل تمرير ذواتنا بأتجاه الحياة، كان ذلك قبل أن تسرقنا الحروب وتقذف بنا الى أعماق الانهيار والتهاوي حيث التهمنا الوطن بشراهة إستثنائية، التهمنا ثم تقيأنا في أقرب مزبلة تاريخية، لقد تعامل مع طيبتنا بلؤم شديد، أقول طيبتنا وأعني بها غبائنا، أعذرني يا صديقي إنها الحقيقة، كنا أغبياء عندما حاولنا إصطياد الغيوم، علينا أن نعترف بذلك..
رغم ذلك يا صديقي، رغم ماضينا المُعبّأ بالغباء ولكنا سنحتفل بمناسبة عودتك، نعم سنحتفل وسنرفع الكؤوس نكاية بغبائنا الوطني...

- 13 -

دخل الى المبغى مخموراً، كان يهذي بكلمات مبعثرة، حين رأيت وضعه المزري فكّرت أن أقوم بطرده ولكن أصول المهنة ألزمتني بعدم القيام بذلك، عدم توازنه وشخصيته المرتبكة أنسحبا عليّ بطريقة مفاجئة، إنقسم شعوري تجاهه وأصبحتُ تحت وطئة شعورين متناقضين، الرأفة والاشمئزاز..
سابقاً كنت أسمع بأن السكران يصل الى أعلى مراتب المروءة وإنه يتحول بفعل السكر الى ذات مثالية، هذه الفكرة العالقة في ذهني جعلتني أتعاطف مع ذلك السكران الذي حلّ على مبغاي ضيفا مترنحاً...
كانت كلماته غير مترابطة وأغلبها غير مفهوم، مجموعة جمل مُفككة ومبعثرة تتخللها آهات وزفرات وأصوات قادمة من عالم الضياع، من مجموع ما سمعته منه إستطعت أن

مكتبة الفكر الجديد

أضبط عبارة واحدة يمكنني إعتبارها جملة مفيدة، تلك الجملة كان يطلقها وكأنّه يقذف ما تراكم بداخله من عذاب معتق..
(أنا أيضا أطير.. أنا ايضا أطير)
قالت لي ذاكرتي بأن هذه الجملة قد مرت بها سابقاً، إنها جملة شعرية لشاعر معروف حاولت أن أتذكر أسمه وما تمكنت من ذلك، أنا أيضا أطير، إنه غياب العقل الذي يمنح الانسان الحق في الطيران، حين ينسحب العقل يصبح كل شيء ممكناً..
دخل الى غرفة من غرف المبغى بثمالته العالية وهو يواصل بث كلماته المتقاطعة، تركني أنظر الى خطواته وأنا أحاول الطيران في سماء خيالي، بعد ان توارى في تلك الغرفة دخل أكثر من زبون الى المبغى، إنشغلت أو تشاغلت مع اولئك الزبائن، طاردتني فكرة مجنونة تمثلت بأمنية طارئة معارضة للعقل وهي أن يكون زبائن هذا اليوم كلهم سكارى، لو حصل ذلك لكان هذا اليوم هو اليوم العالمي للطيران..
سمعت أصوات ضجيج في الخارج فسارعت للخروج لإستطلاع ما يحدث، نصحني البعض بأن أكون حذراً هذه الأيام لوجود حملة مداهمات تقوم بها السلطات تستهدف بيوت الدعارة، ربما تكون حملة إيمانية جديدة، قلت في نفسي...
وجدت الشارع مكتظاً بالناس المتجمهرين حول بعض أشخاص يتشاجرون، قفلت عائداً الى محل عملي، إنها مشاجرة وهذا شيء طبيعي يحدث كثيراً في واقعنا، قبل ان الج الباب سمعت صوتاً ينادي بإسمي، التفت نحو مصدر الصوت، يا آلهي إنه عيسى صديقي بائع الصحف، هو طرف في المشاجرة، إضطررت الى التدخل لحل النزاع، كنت قد اعتزلت المجتمع نهائياً ولم يكن ما يدور فيه يعنيني بشيء وخصوصاً النزاعات والمشاجرات وكنت أتجنب ان أكون طرفاً فيها حتى وإن كان لها مساساً بي، أما اليوم فلم أتمكن

مكتبة الفكر الجديد

من الحفاظ على عزلتي وحياديتي، لم أتمكن ان أكون سلبياً وأنا أرى عيسى طرفاً في نزاع، عيسى لا يمكن أن يكون طرفاً في نزاع، عليّ أن أقف الى جانبه..
(لقد صفعني) صاح بصوت عال موجها كلامه لي حين رآني أقترب منه مخترقاً صفوف الجموع المتجمهرة، كان الطرف الآخر من المشاجرة يعربد ويزعق بطريقة مستهترة يسانده في ذلك أشخاص آخرين بينما كان عيسى وحيداً، لم أتمكن من معرفة سبب المشاجرة ولكني أعرف إنها المرة الاولى التي تحدث لصديقي بائع الصحف الوديع، تدخلت الشرطة وتم إقتياد الجميع الى مركز الشرطة بما فيهم أنا..
هناك تعرفت على حيثيات الموضوع والأسباب التي أدّت الى حدوث المشاجرة، أستمر بقائنا في مركز الشرطة مدّة تزيد على الساعتين وفي النهاية أبلغنا ضابط المركز بأن القضية ستعرض على قاضي التحقيق وأبلغنا بأن علينا مراجعة المحكمة في وقت لاحق..
عند خروجنا من مركز الشرطة حاولت ان أعيد الى صديقي عيسى هدوئه النفسي، دعوته الى محل لبيع المرطبات وتناولنا كأساً من العصير، كان مستاءاً ومنزعجاً ويلوذ بصمت حديدي كأنه يعاقب العالم بذلك الصمت، في سبيل إخراجه من صمته قلت له ممازحاً:
ـ لا عليك يا صديقي سأشتري منك كل صحف هذا اليوم..
ما قلته لم يترتب عليه أي استجابة منه...
ـ أنا أعلم إنها لا تحوي شيئاً سوى الهراء ولكني سأشتريها، إحيانا تكون الجرائد ذات فائدة بعيدة عن المضمون المنشور على صفحاتها، مثلاً بالإمكان إستخدامها لمسح زجاج النوافذ أو فرشها والأكل عليها أو إستخدامها كغطاء للجدران في الفنادق الرخيصة، أنت غير مقتنع بما أقول.. أعرف ذلك،

مكتبة الفكر الجديد

حسنا لا تقلق يا صديقي، سأشتريها واقرأها كلها، انا أعلم بأنك ترفض أن تبيع الصحيفة لمن لا يقرأها.. وهذا هو سبب المشاجرة التي حدثت معك هذا اليوم ولكننا في زمن آخر يا صديقي، نحن لسنا أمة إقرأ...
أبتسم يا صديقي، كفى وجوماً، قلت له ذلك بعد أن عجزت عن إخراجه من قمقم صمته وأضفت:
- أسمع يا صديقي، لدي مقترح، ما رأيك بأن تذهب معي لتفرغ شحنات الحزن التي بداخلك، اليس هذا حلاً رائعاً، أختر أي فتاة تعجبك وإدخل معها في فورمة التلاشي وأنسى كل شيء، أرمِ كل شيء ورائك وتعال معي، سنوزع الصحف على كل المتواجدين في المبغى، سنجعله يوماً عالمياً للقراءة، القواد يقرأ.. العاهرة تقرأ.. الزبون يقرأ، المهم أن تكون أنت سعيداً يا عيسى...
كل ما في صحفك سيتم قراءته، حتى الصفحات الخاصة بالاعلانات، مناقصات، مفقودات، متهمون سيتم محاكمتهم غيابياً، ذلك ليس مهماً، المهم ان نستهلك كل الأسطر الموجودة في الصحيفة، ان نصطنع طريقة للتفاعل معها، المهم أن نشعرك بأنك قمت بعمل ذي جدوى وإن صحفك تؤخذ لتقرأ، سأحوّل المبغى هذا اليوم الى صالون ثقافي من أجلك يا عيسى، من أجل أن تنسى ما حدث..
حسنا لديّ فكرة أخرى، ما هو رأيك أن نقوم بإصدار جريدة وتكون أنت رئيس تحريرها، صحيفة إستثنائية ننشر فيها نظرياتنا الجنونية، إنها فرصتك، إنشر ثقافتك، أما أنا فلا أريد منك سوى صفحة واحدة فقط صفحة واحدة لنشر ثقافة التواصل بالحب، ان كانت قوادتي تزعجك فلا تمنحني أي حيز في تلك الصحيفة، صحيح انا قوّاد ولكني امتلك الحق بنشر ثقافتي حالي حال كل البشر ولكني سأتخلى عن

مكتبة الفكر الجديد

ذلك الحق من إجلك، من إجل أن تنسى، أنسى يا صديقي، لديك جرائد تنتظرك، إنها صفعة بسيطة لا تمثّل شيئاً إزاء ما يحدث لنا في مسيرتنا الحياتية، لقد شبعنا صفعات ، لو تصفحت وجوهنا لوجدت منجماً من الصفعات، ولكن قل لي يا عيسى، على أي جانب كانت الصفعة؟ هنالك تساؤل آخر، حين صفعك لماذا لم تدر له الجانب الآخر؟

عند هذا السؤال الإستفزازي لاحظت تكّون إبتسامة حقيقية على قسمات وجهه، عندها عرفت اني إستطعت ان اصل الى مناطق التأثير في وجدانه، استثمرت ذلك وقلت فلنذهب.

في طريق العودة وبعد ان ودّعت صديقي بائع الصحف تذكرت ذلك السكران الذي تركته في المبغى، بمجرد دخولي الى البيت تداعيت لا شعوريا نحو الغرفة التي يتواجد فيها، لأني بحاجة الى أن أركن عقلي جانباً وجدت أنه من المناسب لي أن أستعين بذلك الانسان المتحرّر من سلطات عقله، ليس من عادتي التطفل على الزبائن وإقتحام عوالمهم الجنسية ولكن للضرورة أحكام...

طرقت على الباب عدّة طرقات، لم تحصل إجابة إضطررت الى فتح باب الغرفة والدخول بدون إستئذان، شاهدته متمدداً على الارض يغط في نوم عميق...

هل أوقظه؟

ملامحه الطفولية التي لا تناسب عمره منعتني من الإقدام على إيقاظه، يمكنني أن أحدد عمره بما يقارب الخمسين...

لقد نام وتركني في حالة صراع مع العقل، غرقت في تموجات شعورية ولا شعورية، أخذتني عواصف التردد بعيداً، ألقت بي في هوة كثيفة غمرتني بالخدر اللذيذ، تمددتُ الى جانبه ورحت أجرّب الطيران..

أنا أيضاً أطير...

مكتبة الفكر الجديد

غفوت، إستغرقت في ذلك الغياب العقلي الذي يعود الفضل فيه لسلطان النوم، مرّت بي أطياف باهتة ليست ذات معنى أو دلالة، لم أتمكن من العثور على تصنيف خاص بها أهي من الاحلام أم من الكوابيس، كنت فيها خليطاً غير متجانس من أجناس بشرية تقاذفتها الجهات الأربع، كائن أزرق بلون زرقة السماء، أطير تارة وأقع تارة أخرى لأرجع من جديد أعيد المحاولة، أبحث عن نفسي وأنا اختفي بين النجوم وخلفي تحَلق كائنات وردية لها وجوه تشبه الى حد كبير وجوه عاهراتي، كنت أتلاشى بين الغيوم كأني أفّر من تلك الوجوه التي تلاحقني، اخفق عاليا بجناحي وأوجه بصري الى الأسفل لأرى ما يحدث، كانت لديّ رغبة عارمة بمواصلة الطيران ولكني استيقظت بعد ان دوّت بأذنيّ نوبات صراخ وذعر كان مصدرها صاحبي الذي كنت أحاول الاندماج بعوالمه..

كان يصرخ وهو بين اليقظة والنوم (أيتها الخائنة.. أيتها الخائنة) رأيته يتصبب عرقاً، حاولت ان أهدأ من روعهِ بعد أن لاحظت بأنه قد أستيقظ سألني وهو يلتهم المكان بنظراته المذعورة:

ـ مَنْ أنت؟

ـ أنا صاحب هذا المكان، أجبته بهدوء وأضفت: هذا من روعك، لماذا أنت مضطرب؟

ـ لقد تركتني وذهبتْ الى العدو...

ـ من هي؟

ـ لا.. لا.. هي لم تخَني، هم من أجبروها على ذلك، نعم هم الخونة، هم من أرسلها الى حيث لا رجعة، أرسلوها الى هناك وتركوني عاطلاً أرقب السماء وأبكي...

ثمان سنوات وأنا أحلّق مدافعاً عن الوطن، كان واجباً، وكانت هي شريكتي في ذلك الواجب، أتعرف ماذا كانت تعني لي،

مكتبة الفكر الجديد

كنت أعتبرها معشوقتي التي أمتطيها لنحلّق سويّة في أجواء العشق، كنا نطير لنغيض أعداءنا، لنرسم في السماء صورة عاشقين لا يأبهان بالخطر أيّا كان نوعه وأيّا كان مصدره، ثمان سنوات ونحن نمارس وجودنا في الجو وعلى الارض، وجودنا المشترك غير القابل للفصل، كان عشقنا إستثنائياً ولكن الخونة قاموا بقتله، إنهم خونة، قتلة، أغبياء، لماذا قاموا بإرسالها الى تلك الدولة، لو كانوا قد ارسلوها الى أي دولة أخرى لكان الامر أهون بالنسبة لي أريد أن أشرب، أن أسكر بشدّة، أن أهرب من حالة الصحو، ليس لديّ سوى السكر فعلاً يساعدني على إنهاء المشهد الذي التصق في شاشة وعيي، مشهد سينماني يتكرر، يتنهي ثم يبدأ من جديد مخرجهُ متآمر عليّ، يريد أن يربط روحي بأوتاد اليأس، في ذلك المشهد أرى مجموعة أقزام بلحى طويلة يتقافزون على متن طائرتي ويتلّمظون ضاحكين وهم يشيرون بأصابعهم نحو الشرق...
إنهم يضحكون علينا، أتتخيل ذلك، يضحكون من غبائنا، ليت رصاصتهم التي أرسلوها لي قبل عدّة سنوات قد أصابتني، لو كانت قد أصابت الهدف لقدّمتْ لي جميلاً لن أنساه، لكانت على الاقل قد خلّصتني من حالة الصحو بصورة نهائية، لماذا فشلت تلك الرصاصة في مهمتها، من الذي أقنعها بضرورة التواطؤ مع العقل فلم تنهي حياتي كما أنهت مثيلاتها حياة العديد من زملائي، تلك الرصاصات كانت مكلفة رسمياً بإنهاء المسلسل، مسلسل الأمل الذاوي المتوق للحظة لقاء بين عاشقَين يحلمان بالطيران..
أنا أعتب على من صوّب تلك الرصاصة، لماذا لم يكن دقيقاً، لو كان قد ركّز قليلاً لكنت الآن خارج الزمن، لكان مُخرجنا العظيم قد وضع كلمة (النهاية) على اللقطة الاخيرة التي أظهر فيها وأنا مضرج بدمي وأنظر للسماء، لو كانت نهاية الفلم قد

مكتبة الفكر الجديد

توجهت بذلك الاتجاه لأصبحت موافقة لإرادتين متقاطعتين، إرادتي وإرادتهم، هم سيصلون الى مرحلة الطمأنينة بأن لا أحد سيفكر بإعادة ما تملكوه، وأنا سأرتاح حين أمارس سكرتي الابدية..
هل لديك مشروب.. أريد ان انسى..

- 14 -

ماذا سأفعل بهذا المال؟
المدّة القليلة التي قضيتها في مهنتي الجديدة أثمرت عن جمع مبلغ من المال لا يستهان به، الآن وأنا أقوم بعَد هذه النقود وقعت أسيراً بيد هذا التساؤل اللحوح الذي لم أتعرّف عليه سابقاً ولم يخطر ببالي من قبل..
أنا الخالي من الالتزامات، لا بيت، لا عائلة، ولا مصاريف، ولا نفقات يعتد بها لم أكن أتوقع بأني سأجني كل هذا المال في هذه الفترة القياسية، على الرغم من كوني لم أضع في ذهني الحسابات المادية وأنا أباشر بهذا المشروع الذي قمت به لأغراض إنسانية وذاتية..
كنت قليل الاكتراث بما يأتيني من مال وكثيراً ما كنت أسمح للبعض بالحصول على اللذة على حسابي...
أمام المال الوفير الذي لا احتاجه ومهنتي الإشكالية التي بدأت تدرُ عليَ أرباحاً طائلة وقفت تساؤلاتي في حالة من الذهول الإستدراكي وكأن على رأسها الطير، أمضيت عدّة أيام غارقاً في بحر التفكير المشوش، هل سأقضي عمري أجمع المال وأكدّسه في قاصة الخواء، أنا قوّاد والبعض يقوم

مكتبة الفكر الجديد

بمقارنة ما اقوم به بالرذيلة فهل هذا المال الذي أحصل عليه هو نتيجة الرذيلة...
ماذا أفعل؟ أنا لم أصبح قوّاداً من أجل المال، أنا قوّاد إستثنائي يا ناس، الاموال لا تهمني..
أذن ماذا سأفعل بكل هذه النقود؟ هل أُلقيها في البحر..
أرتفع منسوب توتري في الليلة السابقة ليوم عطلة المبغى، بالمناسبة أنا قوّاد متحضر لذلك فقد قمت بوضع نظام خاص للعمل يتضمن في أحد فقراته أن يتعطّل العمل في المبغى يوم واحد في الأسبوع، كنت أستغل هذا اليوم في عدّة أمور مثل قضاء بعض الحوائج الخاصة أو الذهاب الى المكتبات لإقتناء الكتب التي أضحت أنيسي الوحيد في وحدتي وغربتي المؤبدة..
في هذا اليوم الذي تلا ليلة متوترة قررت أن اقوم بممارسة مغايرة، خرجت من البيت مبكراً وقررت ان اتسكع، في الفترة الماضية وبعد دخولي في هذه المهنة كنت أتحاشى المرور في الشوارع المزدحمة التي يعرفني الناس فيها هروباً مما يقذف وراني من كلمات وعبارات تجرح مشاعري المهنية..
همتُ على وجهي في الإزقة والدرابين المنسيّة قاطعاً الطرق دون أن يكون لي هدف معين، دخلت في الدروب المنزوية التي نسيها أو تناستها المدنيّة، كنت أبحث عن شيء ما، شيء يجول بخاطري منذ الليلة الماضية، تعمّدت أن أخرج دون أن أتناول وجبة الفطور، محاولاً خوض تجربة الجوع، وأنا أستكشف شوارع الفقراء والمُعدمين، رغبت بالدخول عملياً الى أجواء الحاجة والحرمان، كنت أدعو الرب أن يرافقني في هذه الجولة علّهُ يجد لي مَخرجاً من المازق الذي وقعت فيه، الفروع الضيقة المزّينة بأكداس النفايات والقمامة والمجاري الآسنة جرجرتني الى أفق بعيد، أفق لم أضبط شكله في

مكتبة الفكر الجديد

مخيلتي، أحسست بأني أسير في مجَرة الظلام، هنالك شيء يؤلمني ويخترق الظلام الذي غلّفني، يدخل مباشرة الى مراكز القوة في داخلي لينخر أرادتي، سطت عليّ وساوس جعلتني أتصور نفسي شيطان يمارس السياحة واللامبالاة، مجرد مسخ يكنز المال ولا يعبأ بمعطيات الواقع..
مددت يدي الى جيبي المنتفخ وأدركت معنى العار..
هذا العار الذي ضمّني الى قائمته القصيرة، خطواتي السريعة نحو اللا شيء خالطتها أمنية غريبة قفزت الى مخيلتي كسنجاب مصدوم، تمنيت أن يصادفني قاطع طريق محترف يمتلك الجرأة الكافية للسطو على ما أملك في وضح النهار، أخذني خيالي الى الصعاليك الواردة أخبارهم في التاريخ، أولئك الذين يسرقون المال من الأغنياء ليمنحوه الى الفقراء..
هل من الممكن أن أكون صعلوكاً..؟

- 15 -

عندما يجن الليل وينفض عني مَنْ حولي أغرق في بحر من الظلام، حين يهدأ العالم ويأوي الناس الى النوم أوي أنا الى تقلّباتي الساخنة، الكل يذهب الى عوالمه الواقعية أما أنا فأبقى متمدداً على سرير الإفتراض أعَد النجوم وأنتظر يوماً جديداً..
أنا وحيد، شعور رهيب أن تكون وحيداً، بالنسبة لي الرهبة ناتجة عما يسبق تلك الوحدة، لا شيء يشعرك بالخوف أكثر من إنفضاض من كان حولك وتركك تستجدي الحضور، الفعالية المؤقتة لإنسانيتك شيء يثير الرعب، كل من كان

مكتبة الفكر الجديد

حاضراً معي هذا اليوم في المبغى غادرني الى حياته الخاصة، عاهراتي رجعن الى بيوتهن والى عوائلهن، أنا لا أملك معلومات كافية عن ظروفهن العائلية ولكن من المؤكد بأنهن يرتبطن بنظام أسري يمثل لهن الجو العائلي المعتاد، زبائني أيضا تركوني وعادوا الى عوائلهم، لابد ان لديهم زوجات واطفال وكذلك آباء وأمهات ينتظرون عودتهم، روادتني نفسي بأن وجود زبائني في هذا المكان حالة طارئة، رغبة مؤقتة او نزوة زائلة يعودون بعدها الى واقعهم الاصلي أما أنا فابقى أسيراً لعالمي الأنفرادي...

أنا حضور مؤقت، يمكن لي ان اصف حضوري بأنه نهاري الطابع، أنا في الليل أختلف كثيراً عن النهار، ليل الوحشة والسكون واللا أحد، الكتب والصحف والمجلات والتلفزيون غير مؤهلة لملئ الفراغ، لقد شبعت من قراءة (مبغى المعبد ولصوص الله وجمهورية النبي)، ما موجود في هذه الكتب لا يستطيع الغاء وحدتي، ليت مؤلف تلك الكتب يحضرني وأنا أعيش لحظات التوحد مع اللاشيء، كم هي صعبة الوحدة أيها الوجودي الغائب، ها أنا أحقق وجودي أستنادا لنظرياتك، ولكنه وجود مؤقت، يكتبه النهار ويمحوه الليل.. وجودي المنسوخ بالظلام يبحث عنك، يطلب منك أن تكون أنيسه في هذا الليل الموحش، أن كينونتي خاضعة لمونتاج التوقيتات، العالم بأسره يعترف بوجودي نهاراً ثم يُلقيني في سلة المحذوفات ليلاً..

أنا كائن نهاري يُحييني الضوء ويقتلني الظلام، أواجه الظلام بمفردي في بيت معزول موشوم بصفة المبغى، كثيراً ما يراودني شعور بأن هنالك شخصٌ آخر غيري يمارس الوجود في ساعات النهار، ذلك الشخص مختلف عني، لا يشبهني، هو محاط بالحياة الاجتماعية التواصلية أما أنا فنقيضه تماماً،

مكتبة الفكر الجديد

كائن منبوذ مرمي في قعر الليل المدلهم..
هذا الأنقسام الأنشطاري أصبح مصدراً للأرق الذي بدأ يسيطر عليّ منذ أكثر من ليلة، أصبح النوم يفر من عيني، يعاندني بروح خبيثة، يالها من حياة تلك التي تقوم على وجود الآخرين، على حضورهم، وجودي مقترن بوجود اولئك الآخرين، اليوم فقط فهمت مقولة سارتر (الآخرون هم الجحيم)، هم يكونون جحيماً عندما يغيبون، هم غير موجودين الآن لذلك أنا كائن منفي...
بسبب الأرق صرت أكره الليل، أصارع شيئاً خفياً وأنا أضيع في تضاريس العتمة، خيوط الظلام تلتف على عنق أفكاري، تخنقها، أحياناً كنت أغمض عينيّ وأسترجع ما مر خلال اليوم من أحداث، أستحضر كل ما يحدث بالتفاصيل المُملّة، أعرض أفلاماً تسجيلية على شاشة ذهني الصغيرة، أفلاما توثق لما يجري في هذا البيت من أخذ وعطاء، أستهلك تلك التفاصيل المُملّة ولكني لا أحضى بالنوم..
أصبح الليل عدواً شرساً لي، أحاول القضاء عليه، قتله، الفرار منه، كل ذلك في سبيل اللقاء بالنهار، حاولت قتله لأنه يقتل وجوديتي، أصبحت أخاف كثيراً من الظلام لذلك كنت أبقي المصابيح مضاءة في كل أرجاء البيت، يشعرني الظلام بأني لقيط ويصمني بعدم إنتمائي لهذه الحياة، بعدم وجود أيّة صلة تربطني بها، أنا مقطوع الجذر، كائن مؤقت...
في الليل يصاب هذا المكان بالشلل، يتحول الى بؤرة خاوية خالية من أي نشاط حياتي، أعيش أنا هذا الخواء الليلي وأقارنه بالحياة التي كانت تَنبُ فيه نهاراً..
لماذا تختلف الحياة، لماذا تنقسم، لماذا يتركني الناس وحدي؟...
لماذا يتركوني تحت رحمة الظلام، أريد أجابة لهذا السؤال،

مكتبة الفكر الجديد

هذا السؤال سيكون ملزماً للجميع، على الجميع أن يجيب عليه، أريد منهم إجابة محددة، إجابة تنقذني من عُقدة التوحش، حاجتي بسيطة، هي أن يقوم أحد ما بإخباري عن سبب معاملتي بهذا الشكل، بهذه الازدواجية المُفرطة، يقصدوني في النهار ويتخلون عني في الليل، إنهم يكرهونني، أصبحت متأكداً من هذا، يرون بي وسيلة لتحقيق رغباتهم المؤقتة، وسيلة إشباع لا تستحق من الاهتمام سوى القليل من الوقت، الأدهى من ذلك إنهم يرون فيّ شخصاً جشعاً يتاجر بأجساد غيره، يستغل حاجات الناس ورغباتهم في سبيل الحصول على المال... هل انا كذلك...؟

من المؤكد بأنهم يفكرون بهذه الطريقة لأنهم لم يقرنوا (مبغى المعبد) ولا (لصوص الله) ولم يسبق لأحد منهم أن تصفح (جمهورية النبي)، لو كانوا قد قرءوا تلك الكتب لما تبادرت الى أذهانهم هذه التهم، لكانوا قد فهمو حقيقة ما أقوم به، لأدركوا على الأقل بأني ظاهرة من ظواهر هذا الوجود، صوت أعزل يمارس الصراخ لأنه لا يمتلك وسيلة أخرى، كل ما أملكه من ذخيرة هو الصراخ، الصراخ بمعناه الصادم، أواجه العالم الخارجي بجملة صغيرة تقول: هذه حقيقتي.. فهل هذه حقيقتك؟

سأخبر العالم بأن المبغى هو وحده المبنى الحقيقي في التاريخ، هو وحده المبنى الصريح فيه، يُسَمي نفسه بأسم حقيقته، هو الوحيد الذي يعترف بأنه يقدّم الخطيئة، هم يسمونها خطيئة، نعم هي خطيئة ولكنها خطيئة جميلة، يطلقون عليها هذه التسمية ليلاً على الرغم من كونهم يمارسونها نهاراً..

لو كانو قد قرءوا ما قرأت لأدركوا مقدار التناقض الكبير الذي هم فيه، البشرية تتناول مفردة عاهرة دون أن تتناول مفردة عاهر مع الرجل، إنها تحصر الاصطلاح بالنساء

مكتبة الفكر الجديد

فقط لأنها وجدت العهر فنا نسوياً..
من الآن فصاعداً سألزم كل من يدخل الى مبغاي من الرجال أن يعترف بأنه عاهر، الكل سيؤدي القسم، أقسم بالله العظيم إني عاهر، عليه أن يردد ذلك بصوت عال قبل أن يحصل على مراده، نحن هنا لخلق المعنى، هذا مكان مقدس، الداخل الى مبغاي يجب أن يتحلى بروح الشريك، علينا ان نشترك بالعهر، ان نتقاسمه، وليقل العالم عنا ما يشاء بعد ذلك، ليطلق علينا أي تسمية يشاء، إنها خطيئتنا الجميلة ومن لم تكن له خطيئة فليرجمنا بحجر..

- 16 -

أتاح لي عملي أموراً أخرى غير القوّادة، أموراً أعتبرها في غاية الأهمية، ومنها التعرّف على أشخاص غير مألوفين، أولئك الأشخاص تمكنوا من معرفة كلمة السر المطلوبة لفتح عوالمي المحكمة الغلق..
أدركت خلال هذه الأيام بأنني نصّ قابل للقراءة والتأويل، هذا الإدراك توصلت إليه بعد تعرفي على ذلك الشاب النحيف الذي أخذ يتردد على المبغى منذ فترة..
شدّني إليه بهندامه الجميل ونظارته الطبية وإبتسامته التي لا تفارق محياه، بدون مقدمات أخبرني بالمهمة التي جاء من إجلها، إنّه باحث إجتماعي..
لم إرفض الفكرة، بل كنت مبتهجاً بها وأعلنت له عدم ممانعتي من تواجده في المبغى في أي وقت يشاء، قلت له ذلك وأنا اتخيّل نفسي جُزيئة مايكروبية تحت مجهر كبير بإستطاعته

مكتبة الفكر الجديد

إستكشاف إصغر ذرة في شخصيتي..
أخذ ذلك الشاب يزور المبغى بصورة دورية، أنا بالمقابل منحته الحرية المطلقة في التحرك والتجوال داخل أروقة البيت، فعلت ذلك تحت تأثير شعور ناعم غازل فرضياتي وهو أن هنالك رابطة ما تجمعني به، لا أعلم ما هي تلك الرابطة ولكن ذلك الشاب كان يتقرّب إليّ وأتقرّب إليه بتفاعل تبادلي غريب، لم أسأله عن أسمه لأنني ومنذ اليوم الاول لتعارفنا قمت بمنحه أسماً من إختياري..
لقد أسميته (علي الوردي)..
هذا الأسم الذي أطلقته عليه كان بناءاً على معلومة كنت قد حصلت عليها من خلال قراءاتي السابقة والتي تفيد بإن الدكتور علي الوردي كان يُكثر من التواجد في دور البغاء من أجل معايشة ما يحدث داخل تلك الدور ليتمكن من دراسة ظاهرة البغاء بأجوانها الواقعية..
الأسم الذي أطلقته على ذلك الشاب جعلني أميل إليه بصورة عنيفة، توجهاتي القوّادية أتجهت نحوه، كان وجوده داخل المبغى يُشعرني بالغبطة، ربما هو الشعور بكسر العزلة أو على الأقل الشعور بوجود من يتفهم ما أقوم به، وقد يكون لا هذا ولا ذاك، قد تكون سعادتي به ناتجة عن رغبة التوّحد والإندماج بالذات السويّة..
لقد دخل ذلك الشاب حياتي في فترة حرجة، كنت فيها في مرحلة التشتبع حيث تشتبعت بالفكرة وبدأ قانون الغلة المتناقصة يأخذ مفعوله في سياقاتي التفكيرية..
بعد تفكير مضني، رأيت في وجوده الفرصة المناسبة لإعادة إنتاج الفكرة، تلك الفكرة التي بدأت بالضمور والاضمحلال أنا بحاجة الى فعل أو تجربة أو شخص يقوم بإعادة تهيئة مزاجي وتفتيت الضجر الذي أخذ يتسرب الى مكامن

مكتبة الفكر الجديد

وجداني، بدأت أشعر بعبثية ما أقوم به..
أنت عابث.. أنت عابث...
شخصٌ ما يملك صوتاً مخيفاً راح يصرخ بداخلي..
حاولت إسكات ذلك الصارخ، أن أتخلص من صوته المزعج، سعيت الى ذلك بواسطة التشبث بخيوط الفكرة الأولى والتعلّق بإنزياحاتها المُقنعة، حاولت ذلك ولكني وجدت تلك الخيوط واهية وغير قادرة على تحمّل الأفكار الضخمة التي راحت تسحبها نحو هاوية مظلمة..
خطرت ببالي فكرة وهي أن أغلق المبغى وان أتخلص من كينونتي المحاصرة بكلسة قوّاد، بذلت كل جهدي في سبيل تنفيذ هذه الفكرة ولكني كنت أصتدم بجدار الخوف، كنت خائفاً من وحش مرعب يتجّسم أمام تصوراتي مُستعرضاً أنيابه ليرّوع أفكاري المترددة، إنه الخوف..
ماذا جرى ..؟
من الذي أجلسني تحت ظل شجرة القلق..؟
هنالك شيء ينطفي، لا أستطيع تحديده، أحاول التركيز لإعرف ماهيته ولكن الشخص الصارخ يشوّش عليّ ويُفشل محاولاتي..
الإحراج المؤلم أن يكون الضد الداخلي فعّالاً لدرجة الامتهان، بدأت القيم المتضادة تتصارع داخل ذاتي، معركة داخلية بين أفكار متناقضة بعضها يريد إلغاء البعض الآخر، إحيانا ينتابني الإحساس بأنني حيوان داجن وإحياناً إخرى اشعر بأنني نبي أُرسل في غير آوانه، وفي أغلب الأحيان أجدني نقطة سوداء على سطح مأهول بالظلام، نقطة تحاول التشيّء والتكوّن، ولكن اللاجدوى تسحبها الى جاذبية العدمية، منذ فترة ليست بالقصيرة، صرت أتّبع سلوكيات غير مفهومة، أصبحت كثيراً ما أتحسس فروة رأسي بأصابعي، هذه العادة أدمنت

مكتبة الفكر الجديد

عليها منذ ذلك اليوم الذي كنت أسير فيه في أحد الاسواق عندما سمعت عدّة أصوات تصيح ورائي (قرَنْ.. قرَنْ)..
حين أتلّمس رأسي أحس بإن هنالك شيئاً بدأ ينبت فيه، ما هو ذلك الشيء، إنه الوهم.
إسكت يا وحيد القرن، قلت لنفسي، بالاحرى كان كلامي موجهاً لذلك الأنسان المُضمر الذي أنتفض مؤخراً بداخلي مُعتمداً على المنلوج الداخلي..
ما بين سماء الرفعة وأرض الإنحطاط أصبحتُ مُعّلقا بخيط واه، ما بين الكينونة والعدم أوقفتني رؤاي اللقيطة التي لم تنفعها إملاءات سارتر الوجودية، لم أعد سعيداً بمهنتي كما كنت في السابق وبدأت أشعر بالغثيان، هذا ما قلته لعلي الوردي..
إستجابة علي الوردي لما طرحته عليه تلّخصت بكلمة واحدة هي: لماذا؟
(لماذا) علي الوردي إرجعتني الى لحظة الانتعاق الأولى، لحظة إتخاذ القرار، تلك اللحظة التي كنت فيها متحرراً من كل السلطات الرقابية..
اليوم فقط عرفت ما لهذه المفردة الإستفهامية من طاقة إستجوابية، هذه اللفظة المُسننة التي إلزمني علي الوردي بالوقوف على حافاتها إلقت القبض على كل إجاباتي ووضعتها في قفص الاحباط..
إنه ينتظر مني تبريراً، يريدني أن أظهر للآخرين ما لم أستطع أظهاره لنفسي..
قلت له: لا توجد لديّ إجابة..
قال:أذن علينا أن نجد الإجابة بطريقة أخرى...
سألته: وكيف ذلك؟
قال: لنتبادل الادوار..

مكتبة الفكر الجديد

وأخيرا تمكنت من إتخاذ القرار..
سأصير صعلوكاً..
يالها من إنسيابية وجودية، قوّاد وصعلوك في نفس الوقت، إنه تحوير بسيط لمفهوم الصعلكة، عذراً يا عروة بن الورد ويا السليك ابن السلكه ويا تأبّط شرا ويا الشنفرى، أعتذر منكم يا أحبتي، سامحوني لأني سأكون صعلوكاً محوّراً، الصعلوك لص شريف أما أنا فقوّاد شريف، أنا لا أقسم جسمي في جسوم كثيرة، هذا الامر تركته لعاهراتي، أنا امارس ذلك بطريقة أخرى، لقد أتخذت القرار بشأن المال الذي تجّمع لدي، سأمنحه للفقراء..
تمكنت من التوصل الى عوائل معدومة لا يعيلها أحد، عوائل أهملها الزمن، أيتام وعجائز وشيوخ نستهم الرحمة الرسمية، قامت بعض الزميلات بمساعدتي في تلك المهمة حيث اصطحبتني معهنّ الى بعض الأحياء المجاورة التي تضم أسراً تعاني من شظف العيش، اطّلعت على واقع مؤلم وحياة بائسة لا يمكن لأي شريف التعامل معها الا بواسطة الدموع...
الفقراء أحباب الله، لهم حكاياتهم، ما يميز تلك الحكايات إنها حكايات مؤجلة، تنتظر من يقوم بأرشفتها وإعلانها، تنتظر من يقرأها ويرويها ويطلب من العالم البكاء من إجلها.
دخلت الى تلك الحكايات وأنا متسلح بذخيرة كافية من الدموع، كنت ألاحظ الدهشة في وجوه أصحابها وهم يفتحون أبواب مأسيهم لي، يا لها من غرابة، أن يكون تقديم المساعدة

مكتبة الفكر الجديد

شيءٌ صادم.. أمر غير مألوف، وإن يستقبلك من تريد تقديم المساعدة له بوجه متجهم وروح غير واثقة، لماذا يحدث كل هذا يالله؟ صحيح أنا قوّاد ولكن من حقي أن أتسائل..
لماذا نحن في زمن اللا طمأنينة..؟
كانت الريبة بادية على وجه (أم محمد) وهي تستقبلنا أنا وزميلتي اسراء، زميلتي اسراء كان لها الفضل في إطلاعي على قصة هذه الأم وولدها اليتيم الذي يعاني من مشكلة في القلب..
لكون زميلتي قد أمدتني بمعلومات كافية عن ذلك الطفل وعن حالته الصحية والنفسية فقد قمت بأصطحاب مجموعة من الهدايا واللُعب معي كي أقدّمها له، وأنا اتمعن في ملامحه تذكرت قول الرب (وأما اليتيم فلا تقهر)، خطرت هذه الآية ببالي وأنا أراه يتشبث باللُعب التي جلبتها له، كانت طريقته في التعامل مع تلك اللُعب تدّلُ على إن ذلك يحدث معه للمرة الأولى معه طيلة حياته، يالقسوة الزمن وقهره لقد خصه بمصيبتين: اليتم والمرض..
سألت أسراء أم محمد:
ـ كيف أصبحت صحة الصغير؟
ـ لا يوجد تحّسن يحتاج الى عملية..
هنا تدخلت أنا وبادرت بالسؤال:
ـ ولماذا لم يجري العملية لحد الآن؟
ـ حالته تستدعي إجراء العملية في الخارج، نصحني بعض الاطباء بالسفر به الى الهند..
ـ ولماذا الهند، لماذا لا تجرى له العملية داخل العراق؟
ـ راجعت العديد من المستشفيات الحكومية والاطباء وكانت النتيجة ان الإمكانيات غير متوفرة..
أثناء الحديث وأنا أستمع الى ما تقوله أُم محمد كانت عيناي لا تفارقان ولدها، ذلك اليتيم الذي يعاني من القهر الوطني..

مكتبة الفكر الجديد

فأما اليتيم فلا تقهر، أترى يا رب...علينا أن نذهب الى الهند لكي نجد تطبيقاً لهذه الآية...
أين أنت الان يا ألهي، هل أنت متواجد هناك؟
عندما نذهب الى الهند لعلاج قلب محمد الصغير هل سنجد ما يشير إليك، أمن المعقول أن تكون قد رحلت الى هناك لهذا لم تعد آياتك فعّالة في هذا الوطن، إنهم يعبدون البقر ورغم ذلك يقومون بمعالجة قلوب صغارنا، أما نحن عبادك المخلصون فنكتفي برفع إيدينا بالدعاء..
أفكاري الهندوسية انقطعت فجأة، عدتُ الى جو الحديث وبدون مقدمات قلت لأم محمد:
- هيّاي أوراق السفر، أنا سأتكفل بالعلاج..

- 18 -

أنا الآن لست قوّاداً، لقد منحت هذه اللقب لشخص آخر..
منحته اللقب وأوكلت إليه المهمة المقدّسة، ها أنا ذا خارج المنظومة الفكرية والعملية، كلاهما ما عادت لهما سلطة عليّ..
غداً ستكون لي هوية جديدة، سأدخل الى هذا البيت بوصف آخر، سأكون زبوناً...
أستطاع علي الوردي تحريري وإطلاق سراحي مؤقتاً من هذا القيد، منحني وقتاً مستقطعاً لإلتقاط الأنفاس، لقد تبادلنا الأدوار، سيكون هو القوّاد وأنا الزبون..
وصلت الى الفندق في وقت متأخر، كنت متعباً، نفضت عني ثياب القوّادين وبقيت عارياً لبعض دقائق، أختلست بعض

مكتبة الفكر الجديد

النظرات الى نفسي في المرآة المُعلقة على جدران الغرفة البائسة، أوهمتني المرآة بأني قد خلعت ذاتاً ثقيلة كانت تتلبسني، أرتخت أعصابي وخالج روحي شيء من الهدوء والأستقرار النفسي، أستعرت شعور الذين أطلق سراحهم من السجن فرحتُ أطرد فلول الاسئلة التي كانت تهاجمني، طردتها بعيداً، ونمت هانئاً..

في صبيحة اليوم التالي أستيقظت مبكراً، أرتديت ملابساً جديدة أشتريتها خصيصاً لهذا اليوم، قرّرت أن أكون جديداً في كل شيء، حتى تسريحة شعري قمت بتغييرها..

عندما خرجت من الفندق عرض عليّ عقلي المُستحدث أفكاراً عديدة وأعطاني حرية أختيار إحداها وقد أخترت خيار التجوال وقطع أكبر مسافة ممكنة في شوارع المدينة، ربما يكون ذلك الإختيار ناتجاً عن شعوري بأني أنسان جديد، رجل بلا وصمة عار تجعل الآخرون يلاحقونه بلعناتهم، كنت إنسانا بالمعنى المتداول لهذه الكلمة، إنسان يمتلك حق السير في الشوارع دون أن تكون هناك تهمة ما تركض ورائه، شعور طازج كان قد فارقني منذ مدة وهو أنني فرد مساوي للآخرين، مساوي لهم من حيث القيمة، أمتلكُ صلاحية المشي دون أن اتلفت، مررت بكل الطرق التي كنت أتحاشى المرور بها سابقاً، كانت فروة رأسي تلتذ بالهواء البارد الذي يلامسها...

وأنا أحث الخطى مارس عقلي المستحدث حريته بشكل كامل، بدأ بالتنظير، قال لي بأن المجتمع هو من يكوّن ذوات أفراده، يكّونها من خلال نظرته لتلك الذوات، هذه النظرة وما يترتب عليها من إرتدادات شعورية هي من تتولى بناء أساسنا الوجودي وقيمتنا كأفراد بشرية..

إنه عالم ظاهراتي يا صديقي علي الوردي، أنت تجلس

مكتبة الفكر الجديد

مكاني الآن لتمارس القوَادة بينما أنا أتجول بين الناس بآدميتي الخالية من الخطايا..
رأيت إنه من الضروري إبعاد علي الوردي عن ساحة تفكيري وإن أوجل تداخله مع تجربتي الجديدة الى أن تحين لحظة اللقاء بيننا..
عليّ أن أواصل مسيرة ذاتي الأكتمالية وإن أعيش لحظة التحقق الانساني، هذه اللحظة المطلوبة للعدالة عليّ استثمارها قبل أن يتم القاء القبض عليها، هذه اللحظة التي دغدغت مشاعري وأنا في حالة الانسلاخ التام من ذاتي القديمة، إشارت اليّ نفسي الإمّارة بالهروب بفكرة التنّصل من الإتفاق الذي عقدته مع علي الوردي..
فكرّت بأن أترك كل شيء ورائي وأهرب، إنها فرصتك إيها القوّاد، أنت الآن إنسان آخر، لا يعرفه أحد وغير خاضع لوسائل الضبط والإستدلال، عليك أن تستجيب لندائي، أنا عقلك الذي أعاد تأهيلك، إنها فرصتك الذهبية، دع كل شيء ورائك وإترك علي الوردي يُكمل المهمة، من المؤكد بأنه سيتفهم موقفك وسيتولى الدفاع عنك أمام كل العالم في حالة اذا ما وجهت إليك تهمة خيانة المبدأ..
هنا.. عند لفظة المبدأ، شعرتُ بأن فروة رأسي بدأت تحكني وأن هنالك قوة غامضة تتحرك بداخلي، شيء يعربد، يغيّر خرائط مناطق تفكيري، بدأ عقلي المستحدث بالخدر بعد أن تم زرقه بمصل تخدير ذو جرعة كبيرة وراح يلوذ وراء عقلي الباطن، عقلي الذي يربض بداخله قوّاد محترف...
أصبحت مُسّيراً باللاشعور، أصابني الدوار وتلاشت فكرة الهروب بعد أن عادت نفسي الأثمة الى رشدها، رحت أغذ السير كالمجنون وأنا أصرخ:
ـ أنا آت يا علي الوردي...

مكتبة الفكر الجديد

- 19 -

لقد عاد محمد، رجع من الهند بقلب سليم...
وأنا أراه يلعب ويركض بكامل عافيته أدركت بأن هنالك شلال من الصرخات بدا ينساب في داخلي، كلمات هائجة تخدش الحياء الوطني والأثني، ولكني رغم ذلك يجب أن اطلقها؟
يعيش بوذا..
يعيش غاندي..
تعيش البقرة..
يعيش شامي كابور..
اليوم أنا صاحب مزاج خاص، شعرتُ بأن السيخ كلهم يتجمهرون في رأسي، أنا الماهاتما القوّاد، قلبي ينبض بطريقة تناغم دقات قلب محمد المشابهة لأغنية هندية راقصة..
أنهمرت دموع أم محمد، كانت دموعها مخلوطة بالحيرة، وقفت أمامي وقفة العاجز أو غير المصدّق، كانت دموعها وسيلتها التعبيرية الوحيدة، قلت لها:
- الحمدُ لله على سلامة محمد، أهي دموع الفرح؟
- بل هي دموع التساؤل !!
- أي تساؤل..
- منذ اليوم الذي زرتنا فيه وأخبرتنا بأنك ستتكفل علاج ولدي وأنا أعيش في دوامة التساؤل عن السر الذي يدفع شخص مثلك الى التبرع من أجل ناس لا يعرفهم ولا تربطه بهم صلة قرابة، وقد أزداد حجم هذا التساؤل بعد أن سافرنا الى الهند، هناك وأنا أنتظر خروج محمد من صالة العمليات تولّد لديّ

مكتبة الفكر الجديد

تصور غريب..
ـ وما هو ذلك التصور؟
ـ لا أعرف لماذا كنت أتصورك موجود مع ولدي داخل صالة العمليات، كنت أراك بهيئة أخرى لا تشبه شكلك الحقيقي، هيئة لا أستطيع وصفها..
ـ ولماذا لا تستطيعين وصفها؟
ـ لا أعلم لماذا كانت صورتك غير واضحة، كانت ملامحك مائية تنساب على ورق مخيلتي فلا أستطيع ضبط شكلها، طيلة فترة مكوثنا في الهند كنت انت هناك أيضاً، تتجول في مخيلتي..
ـ هل كنتُ هندياً؟
ـ أنا أسئلك هذا السؤال، هل أنت هندي؟
أتدري كم باباً طرقت وكم مؤسسة راجعت وكم مسؤول توسلت من أجل مساعدتي في علاج ولدي فلم أجد اي استجابة ثم تأتي أنت فجأة وبصورة تلقائية لا تسبقها أي مقدمات لتقوم بتلك المهمة، أليس هذا فلماً هندياً.. !!
أمام صمتي وعدم إجابتي أضافت:
ـ إن دموعي التي تراها نابعة عن شعوري بعجز مرّكب، عجز عن رد الجميل وعجز عن الفهم..
ـ لا عليكِ، تحرري من ذلك الشعور، الموضوع بسيط ولا يحتاج منا أن نرهق أنفسنا في البحث عن مسبباته، دعي الامر على توصيفه (فلم هندي)..
بينما كنّا نواصل الحديث فاجئني محمد بسؤال طفولي بحت:
ـ عمو هل جلبت لي لُعب معك؟
قلت له: سأجلب لك كل اللُعب والهدايا التي تتمناها ولكن قل لي الآن هل أنت سعيد؟
ـ نعم أنا سعيد ولكني لا أريد الذهاب الى الهند مرة ثانية..

مكتبة الفكر الجديد

ـ لماذا ألا تحب الهنود؟
ـ أنا أحبك أنت عمو...
ـ ولماذا تحبني؟
ـ لأنك تجلب لي هدايا ولُعب كثيرة..
ـ حسناً سأجلب لك كل ما تريد ولكن عليّ أن أودّعك الآن ـ أبقَ معي بعض من الوقت عمو..
ـ لا حبيبي لدي عمل يجب أن أنجزه، أعدك بأني سأزورك في أقرب وقت وسآتيك بكل ما تريد من هدايا..
قلت له ذلك وانا احثُ الخطى بأتجاه باب الخروج بعد أن ودّعت والدته..
قبل أن أفتح الباب سمعت صوت محمد ينادي ورائي:
ـ عمو.. عمو..
توقفت فأقبل نحوي مسرعاً وقال لي:
ـ عمو أنت ماهي مهنتك؟

- 20 -

أول شيء أردت التعرف عليه هو طعم و نكهة الـ(تفّضل).. هذه المادة الأستقبالية التي تُستهلك بصورة كبيرة في هذه الأماكن إردت أن أتذوقها لأعرف مدى مطابقتها لما كنت أقدّمه لزبائني..
دخلت باب المبغى بروح الزبون المعبا بذكريات تجارب كلها فاشلة، كانت هنالك حركة دؤوبة داخل المبغى، إحساسي بالمكان بدا مختلفاً كأني أدخله لأول مرة في حياتي، لاحظت دخول أكثر من زبون قبلي وهذا ما جعلني أندمج لا شعورياً

مكتبة الفكر الجديد

بسياقات المكان..
الفكرة الاولى لشعور الزبون تجاه القوّاد أول شيء أردت إستكشافه، القيت التحية فرد عليها، كانت ملامحه مضحكة بالنسبة لي ولا تلائم هكذا مهنة، ربما يكون هذا الشعور نفسه قد تكوّن لدى زبائني وهم ينظرون الى ملامحي..
عاملني بأسلوب رسمي وقال:
ـ الحساب لو سمحت..
ـ لا أملك نقوداً، قلت له..
ـ ولكننا لا نقدم خدمات مجانية، يجب عليك أن تدفع..
ـ هل بالإمكان تأجيل الدفع، أتعهد لك بأني سأدفع الاجرة مضاعفة في المرة القادمة..
أستمر جدالنا طويلاً ولم نصل الى إتفاق ولكن الموضوع تم حسمه من قبل زبون آخر أستمع الى حديثنا فعرض على القوّاد أن يدفع الحساب نيابة عني ، يبدو من هيئة ذلك الزبون بأنه يدخل هذا المبغى لأول مرة فأنا لم أشاهده سابقاً، وافق القوّاد على ذلك العرض، شكرت ذلك الزبون على ما تفضل به علي وتوجهت الى الصالة التي تتواجد فيها العاهرات بعد أن قال لي القوّاد الشاب: تفضل..
أصابني شيء من القلق والتردد بعد أن أستحضر ذهني ذكريات سوداء طبعها الفشل في دماغي وقد وجدت هذه الذكريات فرصتها المناسبة للإستيقاظ، وصلتُ الى الصالة فوجدتها خالية من العاهرات، يبدو إنه يوم عمل جيد للقوّاد الذي حلّ محلي فالبيت مليء بالزبائن وجميع العاملات مشغولات بتقديم اللذة..
جلست على أحد الكراسي الفارغة المتناثرة في زوايا الصالة، حالة من التّرقب العنيف قد سيطرت علي، الفراغ مهول من حولي، أمتلئت منحدرات نفسي بسيول الرغبة، شيء أشبه

مكتبة الفكر الجديد

بالبركان يفور بداخلي ولكن ما هو.. لا أدري !!
صورة الملك فيصل قبالتي تماماً، شعرت بأن ملامحه مختلفة عن السابق، هنالك إبتسامة خفيفة تغطي محياه، لابد إنه قد عرفني، إنه يضحك، أكيد إنه يضحك، يرى ما نقوم به ـ نحن شعبه ـ من عبث فيضحك، كأنه يقول لي أعبث أيها القوّاد، حقق وجودك، مارس خطاياك بالطريقة التي تعجبك فأنت في بلد الخطايا، تصرف حسب فهمك للحياة ولا تعتد بالآخرين.. العبث، الفوضى، الخطيئة، الحقيقة، يا جلالة الملك..
لماذا يرغب البشر بالحضور الى هذه الأماكن..؟
ملامح الصورة عادت الى هيئتها الطبيعية فأدركت إن الملك لا يريد أن يجيب على هذا السؤال، الرغبة الفائرة بداخلي تهرّبت أيضا من الإجابة، كانت رغبة صامتة خلاصتها إني زبون مختلف، زبون نواياه باهتة بلا طعم ولا لون ولا رائحة ...
أجلتُ ببصري في تفاصيل البيت المُشتبع بالروائح الشهوانية، كنت مجبراً على تقبل فكرة إن المكان كريه، تقبلتها على مضض لأني لم أتمكن من مخاتلتها...
تجسدت حقيقة الرغبة الملغزة التي زاحمت قصديتي وإيقنت بأن لها وجهاً واحداً بدأت ملامحه تتوضح وتتشكل، تلك الرغبة العارمة رسمت لي خطاً بيانياً بإتجاه مستقيم يؤدي الى باب الخروج...
الخروج.. وكيف ذلك يا نفسي؟ أنا جزء من هذا المكان، بل أنا ثيمته، فكيف أستنكف منه، أي شعور إنهزامي هذا الذي يسيطر علي..
تسمرت على المقعد بعد أن نفضت عني الأفكار الرجعية التي كادت أن ترميني في قفص الهزيمة، سأكمل، نعم سأكمل..
مر أمامي زبون مرهق خرج لتوه من إحد الغرف بعد إن

مكتبة الفكر الجديد

قضى وطره، فكرّت بالدخول الى تلك الغرفة ولكن هيئة ذلك الزبون وشكله جعلتني إترَفع إن إكون خليفة له على عرش المتعة..
قررت أن أنتظر، وانتظرت، خرج أكثر من زبون وأنا أواصل الترفع عن الخلافة، بقيت متسمراً في مكاني، خليفة من غير عرش، في ذلك الأثناء وأنا أنتظر خروج الشخص الذي يستحق أن أكون خليفة له جاء الزبون الذي دفع حسابي وجلس الى جواري وسألني مباشرة:
ـ لماذا لم تدخل لحد الآن؟
ـ أنتظر شيئاً ما...
ـ هل هناك عاهرة معينة تنتظر فراغها لتدخل معها؟
هذا السؤال المحرج أضطرني لتغيير مسار الحديث فبادرته بالسؤال:
ـ ما الذي دعاك الى دفع الحساب نيابة عني؟
ـ وما وجه الغرابة في ذلك؟
ـ في هذه الاماكن نادراً ما نجد هكذا تصرفات، أن يقوم أحد بدفع حساب غيره في مبغى فهذا شيء غريب..
ـ في وطنكم كل شيء غريب، ثقافة القطيعة والنفور هي السائدة، عندما غادرت الوطن لم يكن هكذا..
ـ هل أنت من جماعة الخارج؟
ـ نعم فقد غادرت الوطن منذ عشرون سنة، كنت مضطراً على ذلك، ذهبت الى المنافي وتركت خلفي وطن يصرخ، نعم كان يصرخ بصوت عال ولكني لم أفهم ما كان يقوله..
ـ ولماذا رجعت؟
ـ لقد تركت ورائي أشياء عديدة ورجعت للبحث عنها..
ـ وهل وجدتها؟
ـ بحثت عنها في كل الاماكن ولم إجدها، فتشت عنها في كل

مكتبة الفكر الجديد

زوايا البلاد ولكن للأسف الشديد لم أتمكن من العثور عليها ولم يبق أمامي سوى هذا المكان لعلّي أجدها فيه..
قبل أن أسأله عن ماهية مفقوداته أقتربتْ منا أحدى العاهرات عارضة علينا الدخول معها، نظرَ اليّ ونظرتُ إليه ونظرتْ هي إلينا، غطتْ علامات الإحراج محيانا، لم يستطع أحد منا إجابتها، سيطرت الحيرة علينا ونحن نتمعّن في تقاسيم وجهها المُعبّأ بالمكياج، بعد لحظة صمت وشرود قال لها صاحبي:
ـ نحن نطارد خيوط الدخان.
لم تستوعب تلك العاهرة ذلك، تركتنا ومضت علّها تحضى بزبون آخر يضيف شيئاً الى حسابها المالي، أما أنا وصاحبي فبقينا نتبادل أطراف الكلام..
من خلال حديثه أستنتجت إنه مثلي تماماً جاء الى هذا المكان برغبة مشلولة، رغبة معاكسة، جاء ليبحث عن لذّة أخرى يمكنني القول إنها مستنسخة من خيوط الدخان..
قال لي:
ـ إن المباغي هنا تختلف تماماً عما موجود في الخارج، برأيي إن المباغي هي الوجه الآخر للأوطان، في الغرب تشعر إن المبغى واجهة الوطن وكأنه وطن مصّغر، هل تعلم ان المانيا يعمل بها نحو 400 ألف عاهرة وانها قد نجحت في تنظيم مايعتبره البعض «أقدم مهنة في التاريخ» بحيث أصبح لمن يمارسها الحق في الحصول على معاشات التقاعد والتأمين الصحي وكذلك حد أقصي لساعات العمل لا يتجاوز 40 ساعة أسبوعياً في ظروف صحية مناسبة، وقد أوجد مؤخراً يوم عالمي للمشتغلات بالدعارة تثميناً لعملهن وقد احتفلت به العديد من الدول أوروبية، وهل تعلم ان عائدات تجارة الجنس في اليابان تقدر بما لا يقل عن 1% من الناتج القومي الإجمالي، وهذا يعادل الميزانية المالية المخصصة للدفاع في

مكتبة الفكر الجديد

اليابان..
- وهنا ماذا وجدت؟
- وجدتها بؤرة حقارة...
لقد أهانني، أهان ذاتي المخفية، إستيقظتْ ذاتي الاصلية وأنا أسمع هذه العبارة، الذات القوّادة صاحبة القضية الإشكالية، بحثتُ عن إجابة مناسبة تدحض نظريته، حاولت إستجماع قواي القوّادية لإدافع عن شرف المهنة ولكنه قطع عليَ السبيل حين أضاف:
- المبغى هنا مركز لإستقطاب الضعفاء، مكان لإفراغ العُقد وإعادة ما تهدّم للذوات المحطمة..
- هل هذا يعني إنك جئت الى هنا لإفراغ عُقدك؟
ما قلته فيه شيء من الصحة ولكن بتعديل طفيف، أنا هنا لأستكشف عُقدي، لأضع يدي على أماكني المفقودة، لأتلمس مفقوداتي، قد يرتبط وجودنا بجدوى المكان الذي نتواجد فيه، هكذا يقول الغربيون، عند عودتي الى الوطن لم أتمكن من العثور على ذاتي في كل الأماكن التي مررت بها، عدتُ الى بيتي فوجدته منفى محلي لا يختلف كثيراً عن المنفى الأجنبي، زرتُ المقبرة التي يثوي فيها أغلب أهلي وأحبتي فوجدت لحودها عبارة عن بقايا هياكل تحرّض على النسيان، قطعت شوارع طفولتي فوجدتها مجرد ثيمات مغتصبة، صلّيت في الجوامع فوجدتها مراكز للدعاية الانتخابية، جلست في المقاهي فوجدتها منابع لتصدير الكآبة.
هذه الأماكن وغيرها كانت سبباً لحشر ما تبقى مني في زاوية التضاؤل، ضمور وتلاشي وأفق غير مدعوم، الغريب إنك ترجع لوطنك في سبيل التخلص من شعور ما فتقع أسيراً بيد شعور أكثر شراسة، تحاول ان تنفي ذاتك الغريبة فتجد نفسك قد اكّدتها، إننا نفترض الاشياء ونخلق ما يناقضها..

مكتبة الفكر الجديد

رأيته قد أبحر بعيداً في التفلسف فيما أنا لا أزال مجروحاً في ذاتي المهنية وأنا استمع لطروحات تمارس الهدم تجاه البنى التحتية الخاصة بي كقوّاد متستر بقناع زبون، كان واقعياً، عوالمي الافتراضية لم تستطع الصمود أمام واقعيته، قلت له:
ـ متى ستدخل؟
قال: الدخول مشروع مؤجل، لدي صديق قديم بيني وبينه خيبات مشتركة، أنا ذاهب للبحث عنه...

- 21 -

اليست هذه نوعاً من العبودية، لتضحي بنفسك من أجل فكرة معينة !
هذا التساؤل الوارد في رواية زوربا اليوناني هو ما تردد في وعيي وأنا محشور في زاوية ضيقة من زوايا السجن..
لقد تسارعت الأحداث بصورة غير متوقعة لم أكن أتصورها أو أضع لها حساباً في تفكيري فقد تمت مداهمة المبغى بصورة مفاجئة وقامت الشرطة بإعتقالي أنا وزميلاتي في النضال، كان ضابط الشرطة قد ضحك بملء فمه حين سمعني أردد مصطلح (زميلاتي في النضال)..
طلبت من ذلك الضابط أن يحمّلني المسؤولية وحدي وأن يطلق سراح الزميلات ولكنه لم يرد على ذلك الطلب وأكتفى بالضحك بعد أن قام بتدوين إفادة صغيرة تضمنت أسئلة مقتضبة جداً..
أنا أضّحي من أجل فكرة معينة...
هذا ليس نوعاً من العبودية..

مكتبة الفكر الجديد

من موقعي في تلك الزاوية، بدأت أفكك السياق التأويلي للعبارة..
إذن عليّ أن لا أبالي بما سيحدث، يجب ان اكمل المغامرة برباطة جأش، ولكن.. يا آلهي لقد أعتقلوا علي الوردي أيضاً... كان متواجداً حين تمت مداهمة المبغى، لقد أعتقلوه، ولكنهم لم يأتوا به الى هذه الزنزانة، الى أين أخذوه يا ترى؟
الليلة الاولى في التوقيف، تجربة الواقع المستثنى من إفتراضاتي الحياتية، هذه الليلة ذكّرتني بأدب السجون الذي قرأت منه الشيء الكثير، ليلتي الاولى يمكن إعتبارها المهادنة الاولى مع الحياة، أو إتفاقية نزع الإفتراض وتبادل العوالم، الانتقال من الصيغة الإفتراضية الى الصيغة الواقعية وتسريح العقل المجازي ليحل محله عقل جديد مؤهل للأندماج القسري مع كينونة المكان، هذه الكينونة المُقيّدة الذي تضم ذوات شاخصة ترنوا الى شيء بعيد، في هذا المكان كل شيء متوحد، متوحد بالأمل..
سيادة الرهبة هو التوصيف الدقيق لليلة الاولى، هذا ما كان بالنسبة لي أنا الذي أخوض تجربة الحبس للمرة الاولى في حياتي، الرهبة زائد سيادة الفراغ زائد الاشتهاءات النافقة..
هنا لا مكان للعزلة، الوحدة شيء محظور، عليك الأندماج والتوحد تلقائياً، منذ اللحظة الأولى لدخولي الى هذا المكان بدأت عيون النزلاء فعّاليتها تجاهي، حاولت أن أخلص وجهي من شراهة العيون النزقة التي نشطت بصورة تميل الى الجشع الفضولي، حاولت الهروب ولكني وجدت ان كل الطرق في هذا المكان تؤدي الى التوحد، شعرت بأن تلك العيون تلتهمني، تفترس وحدتي برغبة لم أفهم معناها..
- بغاء..
هذه المفردة الصغيرة إستخدمتها كإجابة لأكثر من مرة في

مكتبة الفكر الجديد

ليلتي الأولى وأنا أرَدُ على إستفسارات زملائي في التوقيف، لم آخذ بنصيحة بعض رجال الشرطة الذين أشاروا عليّ بعدم الإفصاح عن التهمة التي سقت بسببها الى هذا المكان، قالوا لي بأن ذلك سيسبب لك الكثير من المشاكل داخل الزنزانة، لا اعرف السبب الذي دعاني الى عدم الأخذ بتلك النصيحة، كانت روح القوادة ما تزال فعّالة بداخلي لذلك كنت أجيب وبالفم المليان: أنا قوّاد..

منذ الليلة الاولى أدركت بأن هكذا أمكنة لها خصوصيات وانظمة خاصة اولها ان هنالك سيادة لشخص ما يمثل مركز القوة والسلطة، هذا ما توصلت إليه وأنا أراقب ذلك الرجل الذي يطلقون عليه لقب (ابو شوارب)، كان ضخم الجثة، ذو عضلات مفتولة وصوت أجش وملامح تختصر كل ما موجود في العالم من قسوة، شواربه الكثة نقلتني وبصورة لا أرادية الى عوالمي الافتراضية لأتصوره أحد الزملاء، زملاء المهنة طبعاً، رأيت فيه نموذج القوّاد الكلاسيكي المنتمي الى جيل السبعينات، تلك الفترة الذهبية للدعارة كما يقال..

ذلك المتسلط واقعاً، القوّاد في إفتراضاتي، كان الأخير في سلسلة المتسائلين عن سبب تشريفي في هذا السجن..

أجبته بنفس ما أجبت به البقية، رغم قسوة ملامحه الاّ إني لم أشعر تجاهه بأي أحساس، لا الخوف ولا الأطمئنان..

قلت له: وأنت ما هي تهمتك؟

- إرهاب..

رغم ما يحمله من مكنونات الضراوة الا أنني لم أتحسس في شخصيته أي جذور إجرامية، حتى مفردة إرهاب التي أطلقها بوجهي كانت أشبه ما تكون بقنبلة صوتية تخيف لكنها لا تجرح..

مكتبة الفكر الجديد

تركني وأبتعد، بعد أن رمقني بنظرة متصلبة عرفت المقصود منها، إنها تهدف الى إبقاء أثر رجعي في ذهني تجاهه..
في تلك الليلة أكتفى الجميع بالسؤال السريع عن تهمتي وكأن التهمة هي هوية النزيل والمقياس الذي يتم بموجبه تحديد قيمته الوجودية التي يستحقها في هذا المكان، الكل يسأل ثم يبتعد وأنا أكرر نفس الإجابة، واحد فقط من اولئك النزلاء كسر قاعدة التعارف السريع، عندما جلس الى جانبي عرفت بأن لديه رغبة بالافاضة بالكلام، بادرته بالسؤال:
ـ ماهي تهمتك؟
ـ غسل عار..
ـ وما هي أنواع المنظفات التي إستعملتها..؟
أبتسم عند سماعه لسؤالي، ضحك بعض المعتوهين الذين وصل الى اسماعهم ذلك السؤال، أنا أيضا ضحكت، ضحكت لا إرادياً، هذا أول سيماء التوحد..
هل في سؤالي ما يثير الضحك !! هل قلت نكتة..؟
ـ الا تعرف ما معنى جرائم غسل العار، سألني بصوت منخفض ثم أضاف: لقد قتلت زوجتي، قتلتها بعد أن ضبطتها متلبّسة بالخيانة، لا تقل إنك لا تعرف معنى الخيانة أيضاً، هل ذقت طعم الخيانة يوماً ما، ليس مهماً، أنا تجرعت ذلك السم وعرفت طعمه جيداً..
كانت كلماته شاحبة تشبه وجهه الذاوي الذي داست على كرامته أقدام الأقدار، تلك الكلمات أظهرته بمظهر من يحاول التخلص من وحش كاسر جثم على صدره، لم أقاطعه، سمحت له بالاستطراد:
ـ لم أكن مقصراً معها، صدقني، أحببتها الى أقصى ما يملكه الإنسان من مشاعر، تخليت عن أشياء كثيرة من أجل الاقتران بها، كان حبي لها بمفاهيم بسيطة تناسب مؤهلاتي

مكتبة الفكر الجديد

الحياتية ومستواي الاجتماعي، عشقتها ببساطة وبدون تعقيد وكنت أتقبل منها كل شيء، حتى عيوبها ومساوئها كانت لذيذة عندي وكنت أستقبلها بنشوة العاشقين، لقد قتلتها لأني أحبها، قتلتها لأتطهر من حبها، طعنتها بالسكين عدّة طعنات لأنتشي بحبي وأنا أراه يسيل من مسامات جسدها، جسدها ذلك الملكوت الذي أوهمني عقلي العاشق بإني الوحيد الذي أعرج إليه..

قلت أعرَج، نعم أعرَج، وهل أنا الوحيد في هذا الوطن مصاب بعاهة العرج، هل أنا الوحيد الذي خرج مشوهاً من الحرب، قل لي بربك هل كوني أعرج سبباً كافياً للخيانة..؟

وهو يتحدث لي كانت الزنزانة تضج بأصوات النزلاء، صراخ ومشاجرات وعربدة، إنه عالم من الهستيريا، صراع بين قوى خفية، مكابدات تتشاتم في إفق كالح، هو لم يكن يأبه للضجة التي من حولنا، أقترب مني أكثر وسئلني:

ـ هل أنت قوّاد؟

اومئت له برأسي ففهم الإشارة وقال:

ـ كنت أشتهيها بجنون، حتى لحظة قتلها كنت مُعبّأ بالإشتهاء، القتل ذلك السلوك الغريب مارسته وكأني أمارس الجنس معها لأول مرة، لقد إرتعشتُ وقذفت بجسدها جبالاً من الرغبة التي كنت إدّخرها لإسعادها، لم أكن أعي ما قمت به، لم أدرك معناه، ولكنهم قالو لي بأنه غسل عار، منذ ذلك اليوم وأنا أحاول إستيعاب الفكرة وهظمها، قلّبت الفكرة في دماغي مراراً وتكراراً ولكني لم أفهمها، كان المفهوم ينقلب لديّ الى (غسل حب)، عندما يتلوث الحب فعلينا أن نغسله، نغسله بماذا؟ قبل أن تسألني أقول لك، نغسله بالدم، ذلك هو الفعل الأقرب للتطهر، أن ترى الحب جثة هامدة ملونة بالأحمر، إنه الغروب الجميل.

مكتبة الفكر الجديد

أنا على يقين بأنها أيضا كانت تشعر باللذة، ليتك رأيتها كيف كانت تصرخ بتغنج ودلال وعندما همدت روحها خيّل لي بأنها تسترخي بعد رعشة قوية من رعشات الشهوة..
وأنا أنصت الى هذه التفاصيل قفزت الى ذهني مقولة اوغسطين (أحبوا وافعلوا ما شئتم)، أردت أن أسمعه هذه المقولة ولكني تراجعت طمعاً بالمزيد من التفاصيل..
أنتابته نوبة صمت، نظر حوله، نظراته تشي بأنه يخظر أرواحاً غريبة لتتكلم نيابة عنه، بعد تلك اللحظة التي لا تقاس بالزمن قرّب فمه من أذني وقال:
ـ هل أنت قوّاد فعلاً؟
ـ أجبته نعم أنا قوّاد..
عندها سألني ودموعه تسيل على خديه:
ـ هل تعرف (حياة)
هل كانت تخونني في مبغاك..

- 22 -

توالت الأيام وأنا ما أزال محشوراً في زاويتي، إنها الزاوية الميتة، أنا هنا في هذه الزاوية مجرد حشرة تحاول الطيران، أحلّق عالياً، أزهو لخفق جناحاي ولكني أصتدم بجدران سميكة فأهوي على أرض الزنزانة الرطبة فأعيد إستكشاف ذاتي.. مجرد حشرة..
حشرة مغرورة أو مغرر بها، لا فرق، هي تعيش في عالم متورم لا تتسع العدسة لحجم الخراب المتوّطن فيه، سأكسر الكاميرا وأترك الحشرات تنشر ثقافتها بطريقتها الخاصة،

مكتبة الفكر الجديد

إنها خصوصية الحشرات، عندما تكون محشوراً في زاوية ضيقة فذلك يعني إنك حشرة، بالأخص في الاوقات الحرجة عند صعود روح المنافسة والتزاحم مع الغير على مساحة وجودية تقاس بالأشبار، مساحة خاضعة لنزعات الحشرات التي إنتميت الى فصيلتها مؤخراً، في الوقت الحاضر.. أنا مجرد فكرة أنحشرت بين عشرات الأفكار التي تحاول الطيران وتبوء بالفشل..

هذه الأفكار هي العرض اليومي التقليدي لبرنامجي كموقوف محشور وهي لا تعنيني بقدر ما تعنيني الفواصل، فاصل أول وفاصل ثاني لا غير، لقد غابت أغلب التفاصيل، تخلّت عني ذخيرتي الحدثية فما عاد يظهر منها على شاشة الإستذكار ما يساعدني على إشغال وقت العرض، لذلك إضطرت الفواصل الى إشغال الفراغ..

من أفكاري الصورية المتقطعة تقفز صورة علي الوردي كفاصل إعلاني يدعوني الى الجري وراء تسائل راكض، يا ترى الى أين أخذوه؟ لماذا لم يتم توقيفه معي في هذه الزنزانة..؟

أين أنت الآن يا علي الوردي، أمن المعقول أن تكون الدولة قد خصّصت أماكن خاصة للموقفين من أمثالك، لقد سألت عليك أكثر من مرّة ولم أحصل على إجابة شافية..

هل تحولت مثلي الى حشرة، هل دفعك شعورك التوحدي بهذا الأتجاه، لم يعد بإستطاعتنا تبادل الادوار يا صديقي فكلانا الآن في المستوى الأخر من الإنسانية، المستوى الذي يجبرنا على الوقوف في طابور الانتظار لنستلم حصتنا من الاهانات، نستلمها بوداعة وبروح رياضية عالية..

ليتك كنت معي لتشاهد كبير الحشرات، ابو شوارب، وتسمعه وهو يقص علينا بطولاته الارهابية، تلك البطولات التي لا

مكتبة الفكر الجديد

تختلف كثيراً عن النكات السمجة التي كنا نسمعها من عاهرات المبغى، ما موجود هنا عبارة عن نكتة، نحن في زمن تناسل النكات، أنت هنا تكون مجرماً بالحث، تضحك لأتفه نكتة تصدر من زملائك، إنها اشتراطات وجودية قسرية لابد من الإلتزام بها، الضحك مقابل الاجرام، قانون هذا المكان هكذا ينص...
تداخلت المفاهيم مع بعضها البعض وما عاد بإستطاعتي تحرير ماهيتي، لقد فقدت الصفة التي يمكن أن أُشير بها الى نفسي، قوّاد، ضحية، مجرم، حشرة، صعلوك.. !!
سامحني يا محمد، أنت الفاصل الثاني، لم أعد صعلوكا، أعلم إنك الآن بإنتظاري، تترقب الهدايا واللُعب التي وعدتك بأن أجلبها لك، ربما تكون قد أخذت مني موقفاً سلبياً، من المؤكد أن عقلك الطفل قد تحوّل نحو الهنود بعد إن أقتنع بعدم مصداقية أبناء الوطن، أنت معذور يا محمد، كلنا كذّابون، ولا نستحق منك ان تنتظرنا، لا تنتظر يا صديقي، إغلق باب أمانيك وترّحم على الهنود، لولاهم لكان قلبك الآن معطوباً، قل لإمك أن لا تطرق باب أحد بعد الآن..
عذراً يا محمد، لقد أنتهى الفاصل، المخرج يُشير لعقلي الباطن أن يخرج من المشهد، لقد إنتهى زمن الإفتراض..

- 23 -

موقوف جديد، موقوف أخر، حشرة جديدة..
أصبحت لديّ عيون نهمة لا تقل شراهة عن عيون زملائي، ها أنا إلتهم القادمين الجدد الداخلين الى هذا المكان، التهمهم

مكتبة الفكر الجديد

بفكّي نظراتي، هنالك شيء يُمَيزني عن بقية زملائي هو إنني لا أوّجه الاسئلة، أنا أكتفي بالنشاط العياني فقط تغيرت طريقتي في التعامل مع الوجوه، بت أقرأ الوجوه بطريقة تميل الى المدرسة الواقعية، مع اللجوء في بعض الاحيان الى الأدب المقارن، أتّطلع بالوجوه وأقارنها بالوجوه التي كانت تشغلني هناك في عالمي المفقود..

خلال المدّة التي قضيتها هنا تعرّفت على أغلب النزلاء كما تعرفت على أغلب القصص الخاصة بهم، كنت مصدر جذب للجميع، الكل يحاول الأقتراب مني وكأنهم يخططون لشيء مستقبلي..

أمام ذلك الهراء الطامع بالالتصاق بي كنت أشعر بحاجة ملحة للعُزلة، القوّاد في عزلته، ياله من عنوان كبير، يا له من أمل ضائع..

الهروب شيء مستحيل في هذه البؤرة، كنت أكره الإندماج مع ما يتقيأه النزلاء القدامى من سرديات بائسة لا تتلائم مع مزاجي المنحدر من أصول أفتراضية، ما كان يثير إهتمامي هو القادمون الجدد..

أكثر ما لفت اهتمامي من اولئك القادمين هو ذلك الشاب المراهق الذي زُج به في التوقيف هذا اليوم، صورته حققت ترابط مباشر مع صورة مخزونة في عقلي الباطن، أول ما رأيته إنبثق وجه سناء في مخيلتي..

سناء العاهرة الطيبة التي تفضل مضاجعة المراهقين، أتصورها الآن بوجهها المائل الى البراءة تدخل هذه الزنزانة، تتجه مباشرة نحو ذلك المراهق لتسحبه من يده وتذهب به بعيداً، تأخذه بإتجاه الخلاص، تخلّصه من شراك الحرمان بعد أن تُطلق الرصاص على شهوته المحبوسة بين جدران هذه الزنزانة الرطبة، تقتل شهوته برحمة استثنائية ثم تضمهُ

مكتبة الفكر الجديد

بأحضانها الدافئة وتقول له: نم يا صغيري..
هذا ما كانت تفعله مع زبائنها المراهقين، كانت هي من يختار الزبون فإن لم تجد ما يلائم ذائقتها تلجأ الى الوحدة حيث تدخل الى غرفتها وتضاجع اللا شيء..
قوامها الرشيق وملامحها الاوربية كانت مصدر جذب لجميع مرتادي المبغى، الملاحظة المتعلقة بها إنها لم تكن تبيح جسدها لأي كان، كان لها مزاجها الخاص بالعمل، لم أتجرأ على سؤالها عن سر ذلك الولع بالمراهقين وهي التي شارفت على الاربعين..
من ضوابط العمل التي كنت إتبعها أن أكون قليل الكلام مع عاهراتي، لم أكن أحبّذ الخوض في إمورهن الخاصة، كنت أحترم عهرهن وأمنحهن الحرية الكاملة لإختيار الطقوس التي تناسب مزاجهن فعملنا قائم على المزاج اساساً، رغم ذلك، الا أن سلوك سناء بقي مصدر إستغراب بالنسبة لي وقد أمضيت فترة طويلة أحلل وأفسّر وأناقش مع نفسي الا إني لم اصل الى النقطة الإفهامية التي إبتغيها..
أستمرت تلك الدوامة الى أن جاء اليوم الذي أمدتني فيه أحد العاهرات المقرّبات منها بمعلومة صغيرة توصلت من خلالها الى حل اللغز..
إنها عاقر ..

- 24 -

أنا قوّاد.. أنا قوّاد يا عالم.. أفتحوا الباب..
أفتحوا باب جهنم لأنام فيها، إدعوا كل شياطين العالم لتقوم برجمي، إجمعوا كل كلاب الدنيا لتنهش لحمي الداعر..

مكتبة الفكر الجديد

إفتحوا الباب... إفتحوا الباب...
يُفتح الباب، أخرج مهرولاً بكل ما أملك من سرعة، التفت يميناً ويساراً فلا أشاهد أحداً من حرّاس السجن، القدر يتواطء معي، إنها لحظة الخلاص، أركض الى الأمام متحاشياً النظر الى الوراء..
في الخارج، السماء مكتظة بالغيوم السوداء وكأنها تستعد للإحتفاء بي، بدأ أندهاشي يمطر، تساؤلاتي تسيل على الإسفلت، الشوارع خالية، الشوارع مكتظة بالأغتراب، أمطار حيرتي راحت تبلل صفنة الشوارع، مع أول قطرة إنسابت على أسفلتها المتهرئ بدأت تلك الشوارع بالتوحش، راحت تنهش خطواتي، كان جسمي ثقيلاً أنا المُعبّأ باللاشيء، هنالك صوت يعوي، ذلك العواء كان متنفذاً وقد أختلط صداه باللهاث الصادر من أنفاسي، وجدتُ المدينة مقفرة، الخراب هو من كان يستقبلني أينما توجهت..
إنها مدينتي، نعم إنها مدينتي ولكنها تمارس البراءة مني، تتنكرني، تحتال على لهفتي بإخفاء ملامحها..
إنّي أطارد شيئاً ما، شيء يحمل صفات الضوء، هذا الشيء يتضاءل أمام عيني، أطارده بنفس محمومة، أزيد من سرعتي، صوت العواء أصبح وراني ولكنه بدأ يتعالى، الغيوم السوداء بدأت تتكاثف، السماء أصبحت أكثر قتامة، بوصلة القوادة كانت توجهني الى نقطة معينة، تلك النقطة هي فردوسي المفقود.
مررتُ بجميع الأماكن التي أحبها، المقاهي، المكتبات، دور السينما، مدن الألعاب، الحدائق العامة، دور المسنين، كان لدي طلب من تلك الأماكن، اردت منها اغاثتي وتخليصي من قتامة المشهد، طرقت على أبواب تلك الاماكن لكنها لم تفتح لي، كان هنالك إخطبوط ضخم يلتف على معانيها

مكتبة الفكر الجديد

المتمركزة في جوانحي، سعيت الى تخليص تلك المعاني من ذلك الأخطبوط ولم أنجح في ذلك..
العواء الذي يلاحقني كان له دور كبير في ذلك الفشل، تشوّشت أفكاري، بدأ العواء الكثيف يختلط بنشيج سماوي مصدره المطر الذي راح ينهمر، أدركت بأن الرب قد دخل الى المشهد، الارادة الألهية تُريد أن يكون لها دوراً في إزاحة السواد عن قلب المدينة، هذا ما قاله المطر..
أنا أغتسل، روحي تغتسل، زخات المطر تزيح ما تراكم على روحي من غبار الزنزانة..
في المنعطف المؤدي الى الشارع الذي يوجد فيه مبغاي ظهرت أمامي كائنات ممسوخة، قِرَدَة عجرية ترقص على صوت موسيقى صاخبة، حين إقتربت منها بدَأتْ بالالتفات حولي مُشكّلة دائرة متحركة كنت أنا مركزها..
لا أدري كيف تحولتُ الى قرد وبدأت بالرقص، كان الرقص حينها سلوكاً شهوانياً أثارته زخات المطر، القِرَدَة تردد أغنية لا أفهم عباراتها ورغم ذلك بدأت أشارك بترديدها، أُغني معهم وأتقافز بوفاء كبير للعم داروين..
يالله من حضور خاطف، المطر بدأ يأخذ شكلاً آخر، شكل جنوني، حينها إنساب الفراغ نحو الغروب وتلاشت الوحشة وراحت الشوارع تكتظ بالناس، دبّت الحركة من جديد في الشوارع الميتة، إستيقظت المدينة من سباتها، صحت لتعيش الكرنفال الجنوني المُقام على شرفي..
أمام الجماهير المحدقة بي رحتُ أرقص بعنفوان لا مثيل له، كأني الوحيد على سطح الكرة الارضية الذي يمتلك سيقان تمكنه من القفز، وأنا في غمرة الانبجاس الحركي تفاجئت بإختفاء القردة التي كانت تشاركني الرقص، لقد تخلّى عني شركائي في هذا الاحتفال الميتاوجودي، أختفى أولاد داروين

مكتبة الفكر الجديد

وبقي سكان المدينة ينظرون الى القرد الأبله الذي يرقص وحيداً..
كنت غائباً في فورمة الحركة، لذة التلاشي والفناء في عوالم سحرية لم أتمكن وأنا أعيشها من تحديد مقدار البصاق الذي أنهمر على جسدي من أفواه زملائي في الزنزانة..

- 25 -

تم إبلاغي بأن المحكمة قد حدّدت موعداً لمحاكمتي وإن مصيري سيتحدد بتلك المحاكمة..
المصير، ذلك العالم المبني للمجهول، أفكر فيه للمرّة الاولى وأنا محشور في زاويتي المهملة، هل يحق للحشرات التفكير بمصيرها، أحتك بذاتي الضيئلة، أحاول أن أضع الأجوبة المناسبة للأسئلة الرنّانة المتعلقة بذلك الشيء الضبابي المسمى مصير، يقفز امامي وجه صديقي عيسى بائع الصحف وهو يحدثني عن مصيري...
يومها قلت له بأن المصير مفهوم فضفاض نوجهه حسب ما تشتهي أنفسنا ونرتبه لا شعورياً وفق ما يناسب نزعاتنا الحياتية، إبتسامته البريئة لا زالت طرية في ذاكرتي وهو يصر على كونه متأكد من نوع المصير المقدّر لي، كان يستند في نبوءته على مقال أقتطعه من أحد الصحف وكان يتخذ منه حجة في نقاشه معي، في نهاية النقاش سلّمني تلك القصاصة وقال لي احتفظ بها وتذكرني وأنت تدخل الى الجنة..
ماذا سأقول أمام المحكمة، بأي طريقة أعرض لهم دفاعي

مكتبة الفكر الجديد

عن رعونتي، هل كنت أرعناً؟ ولكن ما أهمية ذلك سواء أكنت أرعنا أم لم أكن فأنا مجرد حشرة تنتظر من يدوسها لتغدو بعد إنتهاء المحاكمة مجرد لفظة مُدانة في سجلات القيود الجنائية..

المحاكمة، يوم تحديد المصير، على الأرجح إن ذلك اليوم سيكون يوماً عابراً وسيمر مرور الكرام، مجرد قوّاد نال جزائه العادل، هذا ما سيقوله مدّونو التاريخ عندما يشيرون الى سيرتي الذاتية، من المؤكد إنهم سيضعونني في الحقل الخاص بالمارقين والخارجين على الارادة السوّيّة ..

في هذه الأيام بالذات، وبعد إنتشار خبر موعد المحاكمة في أوساط السجن بدأ بعض التغيير يطرأعلى طبيعة العلاقة بيني وبين زملائي في الزنزانة، تعاملهم معي بدأ يميل الى الحميمية الزائدة، إيقنت بأنهم يعطفون علي، يفعلون ذلك وكأنهم يحاولون ان يخبروني بشيء ما، شيء يتعلق بالمصير، يا له من قدر أحمق ، حتى الحشرات بدأت تشفق علّي..

ذلك الحلم الذي تحولت فيه الى قرد بدأ يتردد علّي كثيراً، سابقاً كنت أضحك ممن يحاولون تفسير الأحلام، اليوم أنا أحاول بكل ما أملك من جهد أن أجد تفسيراً لذلك الحلم الذي تحول الى كابوس يقض مضجعي في ليالي هذه الزنزانة الرطبة..

أنا لا أملك من معجم الحياة شيئاً سوى مفردة الأنتظار، كابوسي لا توجد في قلبه ذرة رحمة وسجني لا يوسف فيه، فقدت شهيتي لكل شيء، ما عدت آبه للوجوه الجديدة التي تحل في ضيافة هذا المكان، نظرتي الموقعية باتت ضيقة، هذا المكان مجرد ترانزيت نحو مصير مجهول، الاحتمالات زادت من طاقتها الاستيعابية وبدأت تتسيد على أفكاري

مكتبة الفكر الجديد

وأنا أغرق في بحر الشفقة، حتى أبو شوارب الذي كان في السابق يحاول إخافتي بكل ما أوتي من قسوة قد تحول الآن الى كائن عطوف يعاملني برفق وحنيّة، يأله من شعور مُخيف ان يتحول العالم الى كتلة جليدية تبدأ بالذوبان شيئاً فشيئاً، الأيام صارت لا قيمة لها عندي، مجرد توالي وتناسخ وعد تنازلي وموعد يقترب، وأنا أتفكك ما بين عوالمي التي أختلطت وتداخلت فلم أعد قادراً على التمييز بينها، نصفي الواقعي التهم نصفي الإفتراضي، لم أعد شيئاً واضحاً، مجرد قرد يقفز من كابوس الى كابوس آخر، إنها أعلى مراتب الواقعية، الواقعية التي تعمدت ان اقفز عليها سابقاً اعود اليوم لأقول لها أنا آسف، شيطان الافتراض هو من غرر بي وجعلني أتعالى عليك، سأبقي قصاصة صديقي عيسى في جيبي تعزيزا لذلك الاعتذار، اعيد قرائتها مرات ومرات واحتفظ لنفسي بشيء من السكينة، كان فيها شيئاً من التحايل المؤجل، التحايل المكتوب لوقت لاحق قد حان أجله الآن، حاجتي لشيء من الطمأنينة تجبرني على اللجوء لذلك التحايل المسطور في قصاصة عيسى بائع الصحف، اخرج القصاصة من جيبي واقرأ:

[هل الله معنى بقضية القوّاد والعاهرات؟..

وهل يحق للانسان أن يقيم بيتاً للدعارة شريطة أن لا يقهر فتياته على الزنا...؟

(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) هذه الآية تجيب على التساؤلات الواردة أعلاه، أي ان من لا يكره فتياته على البغاء فأن الله سوف يغفر له.!!! بالإضافة إلى أن الرب هنا لم يحدد أي عقوبة أرضية أو سمائية لمن أقدم على مثل هذا العمل، سواء تراجع عنه أم

مكتبة الفكر الجديد

لم يتراجع، فهناك الرحمة والمغفرة فقط..
التساؤل الذي يمكن إثارته هو لماذا لم تتخذ الآية القرآنية صفة المنع التام والتحريم الكامل لعملية العهر للقوّادين والعاهرات؟!!..هل هو لعدم هز أرجاء المجتمع، وهل هذه القضية من الأهمية بمكان حتى تنزل من سابع سماء إلى الأرض حتى تطمئن القوّاد وعاهراته؟ طالما هى آية قرآنية وكلام الله الصالح عبر كل زمان ومكان...
ماذا لو لم يكن هناك شكوى من العاهرات؟!..هل تبقى بيوت الدعارة والقوادين كما هما فالآية جاءت لتحسم شكوى العاهرات اللواتي يردن التعفف..فما حالنا لو أن العاهرات هن من يطلبن ذلك السلوك؟..أعتقد أن الآية لن يكون لها مكان من الإعراب.!!
فى حالة أن العاهرات أجنبيات ويردن العهر.. والزناة أجانب.. والقواد مسلم.. فهل من الممكن تفعيل العهر والسماح به فى عالمنا العربى الأن تحت هذه المظلة؟
«ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم».
في احكام الدين يوجد منهج الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..لدرجة أنه يتم الإعتداء على تارك الصلاة، أو التى لا ترتدى حجاباً، أين كل هذه الغيرة من موضوع الدعارة ولماذا هذا الموقف المتسامح...؟
دعونا نحلل هذه الآية والأحداث المحيطة بها بشكل جدلى وواعى لظرفه الزمانى والمكانى.
(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم.)
هذه الآية يمكن فهمها فى السياق العام للدين، كل آيات الدين وأفكاره وتشريعاته جاءت فى سياق الحدث والظرف

مكتبة الفكر الجديد

الموضوعي للحاجة الإنسانية، ما الذي دعا دين الإسلام أن يأخذ موقفاً أكثر قوةً وحسماً أمام حدث قواد يجبر عاهراته على ممارسة الفحش..فبدلا من أن يأخذ موقف حاسم بالمنع التام لبيوت العهر والمعاقبة الشديدة للقوادين والعاهرات..أخذ موقف متسامح يظهر منه أنه لا يمانع فى تواجد بيوت العهر ثم يقول له انه سيغفر له، ملخص ذلك ان القواد الذي لا يجبر عاهراته على العمل سيدخل الجنة وانه سيشمل بالرحمة والمغفرة الالهية] (4)

- 26 -

حين تكون وحيداً، تمارس العزلة المقدسة، وتلقي بقشور أفكارك على قارعة الترّقب، يكون الحق كله معك وأنت تحرق الوقت بالتفكير العبثي، هذا ما جعلني اعبث مع ماركيز...
اعبث معه، أنا من يقول ذلك ولكن الحقيقة انه هو من كان يعبث بأفكاري بواسطة عنوان روايته الأخيرة...
ذاكرة عاهراتي الحزينات...
لم يخطر ببالي إن آخر كتاب سأقرنه بحياتي سيحمل هكذا عنوان ، لا اعرف ان كان القدر يتعمد مشاكستي أم إن الشرطي الذي جلب لي تلك الرواية قد خمّن بأن هكذا موضوع هو ما يناسب ذائقتي كقارئ ..
كنت بحاجة ماسة للقراءة، حاجة المدمن المحروم مما أدمن عليه، منذ حلولي في هذه الزنزانة لم أطالع كتاباً، بذلت جهداً كبيراً في سبيل الحصول على أي كتاب ولم انجح في ذلك إلا

مكتبة الفكر الجديد

بعد زيادة المبلغ المالي الذي وضعته في جيب ذلك الشرطي ليقتنع أخيراً ويجلب لي كتابا أغلى بكثير من سعره الحقيقي، مضت أيام عدّة والرواية بين يدي ولكني لم أقرأ منها سطراً واحداً، ما كنت أفعله هو التمعّن في عنوانها فقط عنوانها الاستفزازي مثّل لي سوراً عالياً لا امتلك القدرة الكافية على تسّوره والعبور إلى ما بعده، افتح الكتاب واهّم بالدخول إلى عوالم الرواية فأجد العنوان يسحبني إلى الخارج، الكلمات الثلاثة لذلك العنوان أشبه ما تكون بلافتة صارمة تشير لي بالتراجع، لأول مرة في حياتي أصادف هكذا عنواناً صِدامياً، المتعارف عليه ان عناوين الكتب تمثل الغواية الأولى لفعل القراءة وتلعب دوراً إغرائياً يدفع القارئ الى الولوج سريعاً في ثنايا الكتاب، أما هذا العنوان الذي وضعه ماركيز فكان مخصصاً لإدراجي في سلسلة المتورطين بالعجز...

أمسيت عاجزاً عن فعل أي شيء سوى وضع العنوان نصب عيني ورصف وجوه عاهراتي قبالته، مابين العنوان وتلك الوجوه كانت هنالك فسحة للتأمل، مساحتها شاسعة ولكنها لم تكن فارغة، كانت مشغولة باسئلة مدببة، تحاول إخراجي من دائرة السبات بوخزاتها المتكررة...

عاهراتي، أين هن الآن؟ وهل هن حزينات؟

التاريخ الذي تم فيه مداهمة المبغى كان الحد الفاصل بيننا، منذ ذلك اليوم فقدت أي صلة توصلني اليهن، لم اعرف أي شيء عنهن، حتى من تم اعتقاله منهن قد فقدت أثرهن نهائياً، رغم إلحاحي وسؤالي المستمر لمعرفة مصيرهن إلا إن محاولاتي قد ذهبت إدراج الرياح، بعض من سألتهم قالوا لي: لا تقلق على صويحباتك فأنهن يمتلكن مفاتيح الخروج من أي سجن ونصحوني بأن أفكر بنفسي..

أصحاب تلك النصيحة لا يعلمون حقيقة الأمر، لا يعلمون

مكتبة الفكر الجديد

بأني من خلال ذلك السؤال إنما أفكر بنفسي فقط، أفكر في ذاتي المتناثرة في ذاكرة عاهراتي الحزينات، او بالأحرى ابحث عن تلك الذات في أرجاء تلك الذاكرة الاتحادية التي بعثرها الزمن وبعثرني معها...
وجدت نفسي مُخيّراً ما بين الدخول الى عوالم الرواية او الدخول الى ذاكرة عاهراتي، عاهراتي الحزينات.. يا له من عنوان مغري، ماركيز يتكلم نيابة عني، لو قدر لي ان أكون كاتب تلك الرواية لما تعديت ذلك العنوان...
الذاكرة.. العاهرات.. الحزن...هذا هو مثلثي الوجودي الشبيه بمثلث برمودا، بؤرة الضياع التي دخلتُ إليها بمحض إرادتي، اليوم، وفي هذه المرحلة المتأخرة، أحاول التشبث بأحد أضلاع هذا المثلث هرباً من فكرة التلاشي...
ذاكرة عاهراتي ربما تكون النقطة الوحيدة المُحافظة على شيء من آثاري، رغم علمي بان هذه الربما لا يمكن اعتبارها حقيقة مطلقة إنما هي واحدة من الاحتمالات التي بدأت تنشط وتأخذ دوراً في تفكيري منذ دخولي الى السجن، احتمالات تفتح لي نوافذ جميعها تطل على وجوه النساء المشاركات في تجربتي المبتورة، أنا القواد الحبيس الذي لم يصل الى قناعة نهائية بخصوص التجربة التي خاضها، انظر من تلك النوافذ فأرى وجوه عاهراتي بتعابير وملامح متباينة، انظر إليهن فأعود إلى الوراء، يحق لي ان اعتبرهن العنصر المهم في تلك التجربة، حيوية الممارسة وحركيّتها لا تتم بدون وجودهن، اسمائهن المستعارة كانت تمثل لي جوهر القضية، مسألة قدرتنا على الخلق مرتبطة بتلك الاسماء، الاسماء التي منحتها لهن بمثابة اعادة تهيئة لعوالمنا الخاصة، اتذكر يومي الاول، ذلك اليوم المجنون الذي كنت فيه قاسياً بعض الشيء حين صرحت بأن من ترفض اسمها المستعار

مكتبة الفكر الجديد

سنلقى على قارعة الطريق، فقناعاتي المفرطة يومها هي من دفعني الى ذلك التصريح، بعدها وبفعل جو الالفة الذي عشته بعد اكتشافي لعوالم زميلاتي شعرت بالندم الشديد على ما قمت به، ادركت بأنهن لا يستحقن تلك القسوة، رغم تعدد تلك الاسماء المستعارة التي سرقتها من عبد الستار ناصر الا أنني وفي أحيان كثيرة الجأ إلى اختصارها بأسم واحد، كنت أسميهن (ملائكة السعادة)، هذا الاسم يليق بهنّ فقط، لا اعتقد ان هنالك أحد غيرهن في هذا العالم بإمكانه تقديم نفس البضاعة المتوفرة لديهن، بالمقابل كنت أتذمر واستاء كثيراً من بعض التحليلات النفسية التي تُظهرهن في صورة سلبية محضة..

من هي المرأة العاهرة؟

هي من تقدم جسدها فرصة لينال الرجل لذاته الجنسية مقابل ثمن يدفعه هذا الأخير من غير أن يكون مقصدها هي الحصول على نفس هذه المتعة. فهي لا تبحث عن طريق هذا الاجتماع لاعن اللذة ولا الحب ولا العطف ولا الحنان إنما تسعى للثمن..

ياله من تعريف ساذج !

كيف تتكون و تتبلور شخصية العاهرة؟

يمكن رسم صورة عامة حول تكّون شخصية العاهرة، حيث نراها في مطلع حياتها أميل للاستهتار و اللامبالاة و الضعف الأخلاقي ومع الأيام تصبح أكثر قسوة وتصلباً في نزوعها ضد المجتمع من حولها، وهي تتميز عادة ببرود جنسي وضعف في النضج الاجتماعي و الانفعالي أو في الارتفاع إلى مستوى القيم الأخلاقية التي تناسب عمرها، وبهذا فهي تبدو متخلفة تخلفاً واضحاً وناقصة في نموها من حيث الجنس والعاطفة والقيم، أما سلوكها فيكشف عن نزوع نكوصي يعود

مكتبة الفكر الجديد

لصراعات الطفولة و نقص عنصر الحنان بتلك المرحلة بشكل خاص، أما صراعاتها فتتمثل بحقدها العميق على الرجل و نزوعها للانتقام منه بأشكال أبسطها منحه اللذة مقابل ثمن و حجبها عنه الحب والشعور بالتملك....
انه تحليل سخيف ولا يمت للواقع بصلة..
كنت اقرأه بشيء كبير من الامتعاض، ملائكة السعادة لا تستحق كل هذا التجني والتطرف في القسوة، من لم يعايش هذه الشريحة من النساء عليه ان لا يطلق الاحكام جزافاً عليها، انهن جميلات في كل شيء، حتى في عهرهن، اتذكر ذلك اليوم الذي فاجأتني فيه إحداهن بالقول بأن زميلاتها يفكرن ويخططن لمقابلتي بالمثل، من خلال حدسي كقوّاد محترف فهمت مغزى ما قالته، إنهن يبحثن لي عن أسم مستعار، لم اجهد نفسي في البحث عن تبرير لذلك لعلمي بأن ما قامن به كان فعلاً اضطرارياً نتج عن كوني لم اكشف لهن عن اسمي الحقيقي، طيلة تلك الفترة وأنا بلا اسم، كنت القوّاد فقط تعلقي بهذا اللقب جعلني أحرم ملائكة السعادة من التعرف على أسمي...
لقد حان وقت الحصاد، أنا اليوم اقطف ثمار ما زرعته، بعد ان دخلت الى متاهة الذاكرة العائدة لعاهراتي الحزينات حسب توصيف ماركيز، لا ادري ما ذا سيكون رد فعله اذا وصل الى علمه اني فضلت الدخول الى ذاكرة عاهراتي بدلاً من الدخول في تفاصيل روايته، اعتقد بأنه سيعذرني، بل من المؤكد انه سيتفاعل مع قضيتي حين يعلم أني ابحث في تلك الذاكرة عن شخص بدون اسم، شخص غامض كل ما تبقى له من رصيد هو اللقب فقط من لا يمتلك اسماً هل يستحق ان يتذكره احد يا ماركيز...؟
في متاهات تلك الذاكرة أجدني منفياً، غريب يتسكع في

مكتبة الفكر الجديد

طرقات ترفض التعامل مع مجهولي الهوية، كينونة تائهة تم منح صاحبها صفة لاجئ لكونه لا يحمل اسماً، ما لا يمكن إنكاره هو أنني مجرد لاجئ على ابواب هذه الذاكرة المغرمة بذوي المسميات، أما أنا الخالي من الاسم والكُنية فلست سوى شيء عابر ينتظر الأمر الإداري الخاص بإنهاء إقامته وإلقائه على الحدود...

بما ان إقامتي في هذه الذاكرة مؤقتة فعليّ ان لا أضيّع الوقت، يجب ان اقطع أطول مسافة ممكنة في أرجائها وان استكشف اكبر قدر ممكن من معالمها، المهمة يجب ان تُنجز سريعاً، أكملها وأغادر بهدوء، انسحب من تلك الذاكرة بمحض إرادتي لكي لا يقال بأني خرجت منها مطروداً...

هذه الوساوس، اتخلص منها ثم تعود لتيسطر على افكاري مجدداً، لست متشائماً ولكني أدور حول نفسي، دوامة أفكاري تحاصرني، لا ادري ان كنت مخطئاً او مصيباً حين استغنيت عن أسمي واكتفيت بلفظة القوّاد، إنهن عاهراتي ولا بد لي من مكان في ذاكرتهن، ليس من العدل ان أكون مشطوباً منها، كنت أسير في غابة من المسميات، تزاحم شديد شوّش أفكاري وجعلني أتخبط في تعرجات معقّدة، أين أنا؟ ماذا يدل علي؟ لو كنت قد تمكنت من معرفة الاسم المستعار الذي اختارنه لي لكانت مهمتي الآن في غاية السهولة، ولكني بدون اسم...

لعلّي أجد من يجيبني، رحت اصرخ بكامل قواي الصوتية: أنا القوّاد.. أنا القوّاد.. أين أنا في هذه الذاكرة.. اين انا....؟ التفت إليّ كل ما موجود في تلك الذاكرة ولكن لم يتفاعل أي احد مع صرختي، شعرت بأن الوقت بدأ ينفد، لذلك كررت الصيحة ولكن بإسمي الصريح هذه المرّة وكانت النتيجة ذاتها، حاولت أن احدد موقعي بالضبط أنا في ذاكرة إيّة

مكتبة الفكر الجديد

عاهرة، علّ صاحبة تلك الذاكرة تتعاطف معي وتقف الى جانبي في هذا المأزق، صرخت بأسمائهن جميعاً ولم احصل على إجابة، نسيت ان الأسماء التي أنادي عليها جميعها ليست حقيقية، إنها أسماء غير صالحة للاستعمال حالياً، لقد انتهت مدة صلاحيتها، ولابد إن عاهراتي قد نسينها وما عادن يتذكرنها، رحت أركض بشعور الغريب المُطارد الذي لا يجد من يأوي خطواته ويطمئنها، أهرول وخلفي من يقذف أحجار التقريع واللوم، تلك الأحجار أصابتني في غير ذي مقتل ولكن ما ترتب عليها هو خروجي بحقيقة لم ترد في قواميس القوادة العالمية وهي ان من لا اسم له فلا يبني أملاً كبيراً على ذاكرة الآخرين.

- 27 -

البراءة، الخطيئة، الأعتراف، الندم، التشكي، التوسل، القهر، التماهي مع اللامعقول، الحياة هنا تمثل نزوعاً الى السخرية، نظرية تهكمية تواجه الجميع بمعطياتها، المكان شاغر على الرغم من كونه مزدحم، يعاني من الفراغ رغم كونه يضج بالقصص..
في هذه الأيام بتُ أُمارس الحذف والمسح، عملية إفراغ كامل للملفات التي تم تخزينها على هارد ذاكرتي خلال مدّة توقيفي في هذه الزنزانة، تلك الملفات ما عدت بحاجة إليها، يجب نقلها الى سلّة المحذوفات، هذا لسان حال من يسعى لملاقاة مصيره وهو خالي من أي إلتزام إستذكاري..
بالأمس حدثت مشاجرة بين أثنين من النزلاء، هذا الحدث

مكتبة الفكر الجديد

الاستذكاري الأخير، لابد من إستعادته وسرده قبل ضمّهُ الى قائمة الملفات المشمولة بإيعاز الحذف...
مقدمة النزاع كانت عبارة عن أغنية جماعية، وجع مُزمن ينحدر من شفاه ملعونة، الكل يتعاطى ذلك الوجع، الكل يردد مفرداته التي تمثل الخارطة المثالية لمدينة البؤساء ونظرائهم، أنا في زاويتي البعيدة أراقب وأستمع، توّحد مفجع يدل على إنسانية مبعثرة تبحث عمّا يوحدها، كم تمنيت أن أكون أحد المشاركين في ذلك القدّاس، ليتني أمتلك جرأة الانخراط معهم ومشاركتهم في الغناء، انضم أليهم وأطلق العنان لكتلة الأصوات المحبوسة في داخلي، أطلقها لتؤدي شيئاً يذّكرها بوجودها، تلك الأغنية بكلماتها البسيطة إستطاعت أن ترّوض نفسي الإنعزالية وأن تعيدني الى حظيرة ذوي الاحتياجات العامة، شعرت بانتمائي النغمي، كانت أغنيتهم تغازل ضياعي، تقول لي: أنت منّا، لذلك رحت أغني داخلياً وأقول لهم: أنا منكم...
وأنا في ذروة الأندماج الطربي توقفت أصوات المُغنين بصورة مفاجئة، أنقطع إنثيال الوجع، توقف كل شيء بسبب خلاف لفظي متعلق بأحد قوافي الأغنية، ما بين الأمل والألم كان الاختلاف الاوّلي والذي تحول بعد ذلك الى تشابك بالأيدي، صراع عنيف بين نزعتين متضادتين، الأمل والألم يتشاجران، إنه صراع المعاني، سادت الفوضى وتدخل من كان مشتركاً في فعالية الغناء، لاحظت ان كل اللكمات والركلات المتبادلة ذات بُعد وجودي محض.. هذه المعركة ذات البُعد المعنوي إنتهت نهاية تراجيدية، طرفا المعركة، كلُ واحد منهما في زاوية معينة من الزنزانة وكلاهما يغرق في نوبة بكاء، دموع الألم لا تختلف كثيراً عن دموع الأمل، هنالك قاسم مشترك بينهما، كلاهما يمثل نزعة جدليّة، جدليّة أزمة الذات وبقائها، تلك الازمة المتأتية من تصادم المعاني وإختلال التنظيم اللفظي..

مكتبة الفكر الجديد

تلك الليلة لم أتمكن من النوم، أصابني أرق شديد، بقيت يقظاً الى ساعة متأخرة من الليل، عيناي تتوجهان لا ارادياً الى طرفي المشاجرة، راقبتهما وهما يغطان في نوم عميق وكأنهما على أرائك الفردوس وليسا في سجن، أتمعّن فيهما وأتخيل سُبات المعنى، الألم يخلد في نوم هادئ طويل والأمل على مقربة منه يغطُ في إغفاءة ممزوجة بأحلام وردية، ما أعجب هذا المكان، ما اعجبنا نحن البشر، نتشبث باشيائنا ومتعلقاتنا حد التطرف، نجعل منها سبباً لصراعاتنا، نتخلى عن كل شيء من إجلها ثم نتركها ونذهب الى السبات....

- 28 -

كان مشهداً راديكالياً صعباً، الرسمية تشمل كل شيء فيه، وهذا ما لايتطابق مع عوالمي التي تميل الى الإفتراض والمجاز، إنها إيماءة أولى تدعو لعدم التفاعل، إقتادني شرطي نحيف بملابس غير مرتبة الى قفص يقع في الزاوية اليمنى من القاعة التي تتوسطها منصة يجلس عليها ثلاثة أشخاص عرفت فيما بعد إنهم قضاة المحكمة، يجلس أدنى تلك المنصة موظف منهمك بإعداد وترتيب بعض الأوراق، على الجهة اليسرى المقابلة لي توجد منصة منفردة يقف عليها شخص ذو ملامح حادة يرتدي عباءة سوداء مزينة بشريط أحمر وهو ما يميزهُ عن القضاة الثلاثة حيث تتوشح عباءاتهم بشريط أبيض، أنا الوحيد الذي لا يرتدي عباءة، تسائلت بداخلي لماذا يرتدون السواد؟ هل هي إشارة دالة على المصير..
إذهلتني صرامة المشهد، إنها تستمد فعاليتها من صرامة الوجوه التي تتسيد القاعة، في زحمة الوجوه الصارمة كنت

مكتبة الفكر الجديد

أنا الوحيد الذي يحمل وجهاً منكسراً، المهمة المسندة الى وجهي هذا اليوم هي إضفاء التراجيديا اللازمة للحدث، شعرت بأهميتي، كنت قد فقدت هذا الشعور منذ فترة طويلة وها أنا أستعيده، الأنظار كلها متوجهة لي، الجميع يتفحصني بنظراته...

وأنا أقف في ذلك القفص الرباعي الأبعاد أدركت للمرّة الاولى في حياتي بأني أمتلك وطناً، وطن متجسم بأبعاد وحدود، هذا الوطن بحدوده الاربعة يحيطني من كل الجهات، يحتضنني بقوة ويتمسك بي برغبة عنيفة، يستهلك وجودي، أنا الآن بمواجهة ثيمتي الوجودية، ثيمتي الواقعية الطاردة لثيمتي الإفتراضية، أنا الخطيئة التي حصلت على وطنها مؤخراً، أنا الأرعن، أنا الواقعي، أنا الإفتراض المحال على التقاعد، أنا البراءة، أنا الجريمة، أنا القرد الراقص، بداخلي ضحكة طويلة ولكن صرامة المشهد منعتني من إطلاقها، أنا القرد النشيط الذي لا يناسبه هذا القفص، أنا قوّاد أم قرد، ماذا سأقول للمحكمة..؟

أذن أنا هنا لغرض المحاكمة، وهذا دليل كافي على كوني إنسان محترم يمكن أن يكون محلاً لتطبيق العدالة، ليست العدالة السماوية طبعاً وإنما عدالة العباءات السوداء والوجوه الصارمة..

قبل إدخالي الى القفص أعطاني الشرطي بعض التعليمات التي يجب علي ان لا اخالفها ومنها أن التزم الصمت وإن لا أتكلم الا حين يطلب ذلك مني..

أبتدات المحاكمة بسؤال وجهه لي القاضي الذي يتوسط الجلسة، سألني عن أسمي ومهنتي وعنواني، بادرت بالاجابة مُردداً أسمي الكامل وأضفت بأنني أعمل قوّاداً وأسكن في هذا الوطن..

مكتبة الفكر الجديد

إجابتي ترتب عليها إبتسامة خفيفة على وجوه الحاضرين في قاعة المحكمة وخاصة بعد سماعهم لما يتعلق بفقرة المهنة، هذا شيء جيد بالنسبة لي، ما زال في هذا العالم شيء يُدعى الإبتسامة، أردت أن أضيف معلومة أخرى وهي إنني في بعض الاحيان أتحوّل الى قرد، أردت ان اقول ذلك طمعاً في المزيد من الإبتسامات ولكني تراجعت عن ذلك بعد أن سمعت القاضي يبادرني بسؤال آخر:

ـ هذا يعني إنك لا تنكر التهمة الموجهة اليك؟

ـ التهمة.. أي تهمة يا سيادة القاضي..!

ـ التهمة الموجهة اليك هي إنك تمارس السمسرة وإدارة بيت للدعارة وهذا الفعل يعاقب عليه القانون..

ـ القانون.. أي قانون يا سيادة القاضي..!

ـ قانون هذا الوطن..

ـ الوطن.. أي وطن يا سيادة القاضي..!

تغيّر إسلوب القاضي وهو يسمع إجاباتي وبدا أكثر توتراً وأكثر صرامة وقال:

ـ كل الادلة المتوفرة ضدك وعليك أن تجيب على التهمة الموجهة اليك بصورة واضحة وإن لا تشغل المحكمة بأمور خارج موضوع الدعوى المعروضة أمامها، هذه الأساليب لا تنفعك، ما هي إجابتك..؟

ـ أنا قوّاد.. لا أنكر هذا الشيء، إنسانيتي قادتني الى ذلك، ذاتي العليا دلتني على هذا الطريق، تحقيق وجودي حتّم علّي أن أكون في هذه المنطقة، الا يحق لي أن أحقق ذاتي بالطريقة التي أراها مناسبة لإنسانيتي..!

نعم أنا قوّاد، هل تعلم يا سيادة القاضي ما معنى قوّاد، هل جرّبت أن تكون قوّاداً، أن تجرّب الانعكاسات النفسية لهكذا سلوك إنساني حين تضع رأسك على الوسادة وتحصي مقدار

مكتبة الفكر الجديد

السعادة التي قدّمتها للبشرية، أن...
قبل أن أكمل جملتي الأخيرة قاطعتني ضربات مطرقة القاضي على المنصة وهو يحاول إعادة الهدوء الى القاعة وإسكات همهمات الحاضرين وبعد أن تمكن من ذلك سألني بنبرة حادة:
ـ هذا يعني إنك تقر بإقترافك للجريمة..؟
ـ وهل إسعاد الناس جريمة، أي منظور وأيّة مبادئ تقر ذلك، الجريمة يا سيادة القاضي أن تؤذي الآخرين، الجريمة أن تحرمهم من تحقيق رغباتهم، أن تكبت شهواتهم، أن تضعهم في خانة الجمود، أن تسلب منهم حريتهم..
أنا ماذا فعلت، هل فعلت ذلك أم فعلت ما يعاكسه، كنت قوّاداً..
والقوّاد هو من يحسن القيادة، على الأقل كنت أقود نفسي نحو حقيقتها ومعها أقود البشرية الى إسقاط الزيف والخديعة، أقود نفسي والعالم لفضح العهر الذي يقبع خارج تلك الحقيقة..
أنا قوّاد وهذا يعني إنني أردت أن أقول شيئاً مغايراً، أنا أعلم يا سيادة القاضي بأنك لا تريد سماع ذلك، ولكني سأصرّح به، ما اردت قوله هو ان هنالك شيئاً واحداً في تاريخنا يمثل الحقيقة، إنه المبغى..
قد لا أكون صاحب هذا الرأي نظرياً، ولكني صاحبه تطبيقياً، المبغى وحده كان صادقاً في حقيقته ولا يواري عورته أو أسمه، كل شيء يكذب يا سيادة القاضي، كل شيء يكذب الا المبغى، هل تعرف لماذا هو لا يكذب، لأن العراة وحدهم من يعيش فيه، إنه المكان الوحيد الذي لا يماري الزيف والخديعة، هو الحقيقة العارية في هذا الوجود، هل سمعت المثل الانكليزي القائل (اذا لم تكن تعلم أين تذهب فكل الطرق تؤدي الى هناك) هذه الهناك يا سيادة القاضي هي الحقيقة المنشودة التي تركتها وراني في المبغى.

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل كنت تاخذ أجراً من الزبائن الذين يرتادون بيت الدعارة الذي كنت تديره..؟
ـ نعم يا سيادة القاضي، كنت أقوم بذلك، أنا قوّاد صريح وهذا يعني إني أختلف عن غيري من القوّادين المقنّعين، وما أكثرهم في هذا الوجود، أتسمح لي أن أضرب لك مثلاً عن بعضهم، حسناً، إن رجل الدين قوّاد مُقنّع وأنت أيضاً يا سيادة القاضي / وارجو ان لا تزعل مني / قوّاد مُقنّع..
عندما لفظت كلماتي الأخيرة ساد الصمت في أرجاء قاعة المحكمة، راح الحاضرون يتبادلون نظرات التعجب أمام جرأتي ووقاحتي، بان الإستياء على وجوه القضاة الثلاثة أما صاحب الوشاح الأحمر فقد أشاح ببصره عني وهو يتمتم بكلمات غير مسموعة..
أمام تلك القنبلة الصوتية التي ألقيتها فأخرست المكان رأيت ان علّي الأستمرار بالحديث فأضفت:
ـ ماهو الفرق بيني وبين رجل الدين، وماهو الفرق بيني وبينك يا سيادة القاضي، جميعنا نمارس نفس الفعل، ولكن وفق عناوين مختلفة، كلنا نحّلل الجسد ونأخذ أجراً مقابل ذلك التحليل، نبيح الجسد ونأخذ المال، رجل الدين يأخذ أجراً مقابل العقد الشرعي الذي يضيفه على طبيعة العلاقة بين الرجل والمراة، وكذلك المال الذي تأخذه أنت مقابل الاجراءات التي تجرى في المحكمة لتنظيم العقد الرسمي، كل ذلك لا يختلف في جوهره عن المال الذي يأخذه القوّادون من أمثالي، المباغي واحدة يا سيادة القاضي ولكن الاسماء تختلف..
الصورة فقط تختلف الا إن الاعماق هي هي، في حقيقتها وقبحها، إن ما يجمع الأجساد ويوحدها في الصورتين هو المال فقط..

مكتبة الفكر الجديد

ـ هل تعلم بأن الفعل الذي قمت به يعتبر فعلاً مُجَرّماً في قانون الوطن؟
ـ قانون الوطن.. وما هو الوطن يا سيادة القاضي، أنا لم أشعر ولم أتحسس بمفهوم الوطن الا حين وضعتموني في هذا القفص، عفواً يا سيدي أنت تُدينني مسبقاً حين تتحدث عن الوطن..
اين هو الوطن..؟ أُريد أن أراه، هل يمكنك أن تدلني عليه يا سيادة القاضي، أريد أن أستدعيه للشهادة في هذه المحاكمة، أطلب من محكمتكم الموقرة تدوين إفادته والإستماع الى أقواله، اطلب منكم ان تسألوه أولاً إن كان بإمكانه التعرّف عليّ، وبعد ذلك اسألوه، هل سيكون شاهد إدانة أم شاهد دفاع، أنا أعلم إنه موجود هنا الآن، هو الإفتراض المقيت الذي يتوسطنا، يجلس بين آمالنا وتهويماتنا وخساراتنا بروح اللامبالاة، إنه شاهد زور يا سيادة القاضي..
ـ هل أنت نادم على ما إرتكبته..؟
بهذا السؤال أدركت بأن أحداث محاكمتي قد وصلت الى مراحلها الأخيرة، هذا ما جعلني أعود الى الماضي لاستحضر وجوه جميع من دخل مبغاي، أرى تلك الوجوه أمامي الآن مبتسمة، ملينة بالغبطة والسرور كأنها تحرّضني على إجابة معينة، تدفع عقلي بإتجاه موجب وتساعدني على تنظيم الإستجابات النفسية لمقابلة المثير الإستفهامي، إرتخت أعصابي، تحولتُ الى شيء آخر يشبه الدخان، تخلصت من قيود الزمان والمكان مُحلقاً في فضاء المجاز والمشاكلة، الإبتسامة تكبر على وجوه زبائني، بدأوا يصفقون لي بقوة وأنا أحلق فوق الرؤوس، ها أنا أطير بأقصى درجات الحرية، لقد حققت مالم استطع تحقيقه سابقاً، لم يعد القفص يعني لي شيئاً، أقتربت كثيراً من وجه القاضي وزملائه المتشحين بالسواد،

مكتبة الفكر الجديد

تحسست وجه المدعي العام، إصتدمت برأس محامي الدفاع الذي إنتدبته المحكمة للدفاع عني، تبرزت على هامات الحضور الذين شغلوا مقاعد القاعة، كنت أطارد شيئاً شبحياً، درتُ حول وجه القاضي اكثر من مرّة، تلّمست خدوده المنتفخة، هنالك شيء في وجههُ يدغدغ ذاكرتي، هنالك من يقول لي بأن له ملامح قريبة من تصوراتي الذهنية، هاهو يعيد السؤال مرة ثانية بعد أن تأخرت عليه الاجابة:
ـ لماذا أنت ساكت، هل أنت نادم؟ أجب على سؤال المحكمة؟
ـ أنا لا اؤمن بالندم، ربما اؤمن بأشياء اخرى مقاربة له مثل الخيبة أو الخسارة او التلاشي او ما يقابلها من مفردات الإنكسار ولكن الندم لا وجود له في قاموس حياتي..
الندم، ولماذا الندم، الخطايا الجميلة لا يجوز الندم عليها، الرب لا يقبل ذلك، هل يندم من كان يقدم السعادة الى الآخرين، الندم نوع من العقاب الأني، جلدٌ مكثفٌ للذات، أنا من دعاة الحياة ودعاة الحياة لا يمسهم الندم يا سيدي، حالة الأحساس بالأثم غير مُفّعلة بداخلي لذا أنا خارج قوانين الندم، أنا في حالة التجرد الإنساني من قيم الخطيئة المتداولة، أنا متشبع بالبراءة فكيف أندم..
دعني أضيف شيئاً لو سمحت، شيئاً واحداً فقط وأنت حر بعد ذلك في الحكم الذي ستصدره بحقي، يستطيع الندم الوصول الى مداركي في حالة واحدة فقط وهي عندما أموت..
كانت فورة انفعالية جرينة تخيلت نفسي فيها ألها إغريقياً يتطهر بماء التجّلي، في تلك اللحظات كنت غائباً عن وعي الجلسة، لم أعي ما قاله ذو الوشاح الأحمر، كانت كوامن اللاشعور في أقصى درجات غليانها، الأصوات تتداخل والوجوه تنساب أفقيا لتدخل شريط خيالي الذي بدأ بالدوران، شعرت بأنني لا شيء، كائن هلامي لا أسم له ولا صورة، مجرد ذاكرة ذات سعة كبيرة لخزن الوجوه وأذن تستقبل أصواتاً غير متجانسة،

مكتبة الفكر الجديد

تلك الأصوات المتلاحقة كان آخرها صوت أجش بدأ يتلو آيات خالية من نكهة الرحمة، لم يستطع عقلي الباطن أن يفهم منها سوى الأسطر الأخيرة (الإعدام شنقاً حتى الموت إستنادا لقانون مكافحة البغاء)، لم تتحرك مشاعري لما سمعته، لم يكن ذلك مهما عندي، كنت منشغلاً بتجسيم صورة صاحب الكلمات وضحكته العالية: ها.. ها.. ها..ها

- 29 -

أقف عارياً أمام الرب، وحيداً، أستمع الى موسيقى جنائزية تأتيني من جهة بعيدة، هناك حُزمة أضواء خافتة تميل الى الحُمرة مُسلطة على عُريي بصورة عمودية..
إنه حساب إنفرادي، يوم قيامة خاص، أقف فيه وحيداً في عرصات المحشر، دانخاً في حالة وسط ما بين الصحو والسُكر، أحاول أن اغلّب حالة الصحو، قلت في داخلي من العيب إن ألقي الرب وأنا سكران، إنه لقائنا الأول، يجب أن أكون في حالة توازن تليق برسمية اللقاء، تفكيري المتذبذب متوجه للرسميات، رغم ذلك، كان السُكر يغالبني ويأخذني الى عوالم خارجة عن إرادتي المنضبطة، هنالك لذّة مُحرّمة دنيوياً تدتدغ أحاسيسي المترسبة في ذاتي الدنيا، نوبة سُكر شديدة ألقت بي في طوفان اللذّة وأنا أتحَسس عُريي، كم هي مغرية لذّة العُري أمام الإله، يُضيف اللون الأحمر المسلط على الجسد العاري بعدا رمزياً لها، رغم ما تبثه تلك الأضواء من أجواء شهوانية ولكنها لحظة براءة خالصة، اللحظة الأكثر صدقاً في تاريخ العلاقة مابين الخالق والمخلوق، ما أجمل

مكتبة الفكر الجديد

ان يتمعن الخالق في جماليات ما خلق وأن يمتع ناظره برؤاه التشكيلية المستحضرة فنياً...
حالة مثالية، أن يقف العبد مزهواً أمام ربه، وحيداً ولكن وحدته قوية، يستعرض جسده بدون خوف ولا محرمات ولا موانع، كأنه يناجي ربه: أنا عاري إذن أنا بريء، ها انا ذا كما خلقتني يا ألهي خالي من أي متلعقات، أقف أمامك متسلحاً بُعريي فقط، شكراً لإرادتك يا رب، أشكرها لتأييدها ما كنت أدعو إليه في الحياة، ولو ان ذلك التأييد جاء متأخراً، العُري هو الحقيقة الصادقة، الحد الذي نقف عنده جميعاً بلا حياء وبدون إحراج، ضوابط الحياء والإحراج لا وجود لها هنا، نرجسية العُري شطبت على تلك المفردات نهائياً، لا شكّ في ذلك، كيف أشك بذلك وعورتي تحت مرمى بصر الرب، تجّلت قدرتك أين تضع سرك، في أي منطقة تزرع حبّات الطاقة الوجودية، هاهي أمام مرآك، لو كان معي أمراة لاكتمل المشهد، الجمال لا قيمة له بدون الصبغة الأنثوية، عندي أشياء كثيرة محبوسة بين هذه الأضلاع العارية ولكني أتحرج ان اصرّح بها أمامك يا سيادة الرب..
ما استطعت كسر حاجز الصمت، ما زال قيده قوياً، كل ما صدر عني كان منلوجاً داخلياً، عبارة عن ومضات تنتفض وتخبو تحت تأثير السُكر الأخروي، أنا صاحي أم سكران؟ هذا ما لا أستطيع أن أحدده، ما انا متأكد منه هو أن هنالك شيء يتمدد بين فخذي، ينبض بقوة وكأنه قد تولى مسؤولية توزيع الدم بدلاً عن القلب، إنه يوم مهول، هذا شيء طبيعي، كيف لا وهو يوم حشر وحساب، نتيجة لذلك، لا شيء يتحرك في داخلي، لاشيء سوى التفكير وذلك العضو الرابض بين الفخذين...
لم أعد أعي ما يحدث، صوت الموسيقى الجنائزية بدأ

مكتبة الفكر الجديد

بالإرتفاع، معه بدأت أفواج من العراة تتدفق نحو ساحة المحشر، أمواج لحمية تتلاطم، رجالا ونساء، كلها تتجه نحوي، يبدو أن كرنفال العُري قد أبتدأ، جميع عراة العالم سيقوا الى هذا المكان، إنه يومي، يوم إنتصار نظريتي، يالله من مشهد، الكل سكارى، أنا الوحيد بينهم المحافظ على شيء من الأنتباه، أستثمرت ذلك ورحت أرّكز على مناطقهم الحسّاسة، لم تكن المسافة التي تفصلني عنهم قريبة ولكنني أمتلك حاسة بصر قوية، لاحظت ان هنالك شيء مختلف بيني وبينهم، هم جميعا في حالة ضمور، أما أنا فكان شعوري متوتراً، من دون الجميع كان عضوي منتصباً، إنتصاب كامل مثل رسالة صريحة، أنا متيقن بأن الرب سيفهمها ويتفاعل معها، هذا اليوم مخصص للحساب ولكن حرية التعبير مكفولة..

الجموع العارية لا تأبه لنظراتي الجامحة، لديها ما يشغلها، أما أنا فقد كنت في ذروة التماهي مع الطبيعة العارية، اولئك المسطورون الواقفون في طابور القيامة كلهم يحملون كتباً، بعضها باليد اليمنى والبعض الآخر في اليد اليسرى، أما أنا فيديّ خاليتين، لا ضير في ذلك، لدي ما يغنيني عن ذلك الكتاب، أقصد عضوي النابض برسالته العظيمة...

كنت خارج السياقات، أقف وحيداً خارج الطابور، ازدادت قناعتي بأهمية مابين فخذي وأنا أشاهد أثنين من أعضاء الضبط الألهي يقتربان مني ويمسكان بيدي من دون الحشود الحاملة للكتب، أمراني بأن أرافقهما، لقد أن الاوان، إنها ساعة الإعلان، ساعة الوفاء دقّت أجراسها وعليّ أن أردّ الجميل، عليّ أن أوّجه الشكر لذلك العضو الذي حدد لي هذا المصير، واجبي الاخلاقي يحتم علي ان اشير اليه وان أصرّح ببعض فضائله، يجب ان الفت نظر كل المتواجدين في المحشر الى

مكتبة الفكر الجديد

كونه صاحب الفضل عليّ وان اختياري من دونهم كان بسببه، لا شك ان اصحاب اليمين سيبهتون ويشعرون ان ما بيمينهم لا قيمة له أمام ذلك العضو، أصحاب الشمال وهذا شيء مؤكد سيكتفون بنظرة حسد وهم يسمعونني أُطلق لصوتي العنان معلناً عنه بجرأة لا تناسب المقام، لا يوجد شيء مخفي بعد الآن، هاهي الحقيقة، أنظروا اليها جيداً يا أصحاب الكتب، قارونها مع ما موجود في صفحات كتبكم، شاهدوه كيف يقودني الى المصير الذي عجزت كتبكم عن إيصالكم إليه، هو الوحيد الذي يستحق الرحمة، هو المرحوم الوحيد بينكم أنظروا إليه كيف يمشي مرفوع الرأس، لقد أصدرت الأقدار قرارها النهائي، قضي الأمر الذي فيه تستفيان، هاهي الأخرة تلزمكم بالاقتناع بما رفضتم الاقتناع به في الدنيا...

كنت في أعلى مراتب الزهو وأنا أسير متوسطاً عضوّي الضبط الآلهي، شعرتُ بأن هذا اليوم مخصص لي وحدي، أنا سيد الموقف فيه، العيون شاخصة نحوي، أمنيات كثيرة تحوم حولي صادرة من أشخاص يودون ان يحلون محلي، كل من في المحشر يرقب خطواتي الواثقة وأنا أبتعد عنهم بصحبة صاحبيّ القيامة، أخذوني بعيداً، بعيداً جداً، هناك على حافة الأقدار الملتهبة قام أحدهم بجز قضيبي المنتصب، قطعه وألقاه في جهنم، تركوني هناك أصرخ وأنا أشاهد النار تأكله..

كان هذا آخر رزقي من الكوابيس، فغداً سيتم إعدامي.

مكتبة الفكر الجديد

- 30 -

الموت فكرة عسيرة الهظم، والأتجاه نحوه شيء أكثر عسراً..
هذا الصباح يبدو مختلفاً، إنه مضاء أكثر من اللازم، الشمس وبقية مكونات الطبيعة في أشد حيويتها، مجرد شعور لا يقاس عليه هذا الذي أتحدث عنه، منذ ان تم اعتقالي وأنا بعيد عن التفكير بهذه الطريقة، كان شعوري قد مات تجاه حيوية الأشياء، قد يكون ذلك بسبب بعدي عنها، اليوم وعلى خلاف السابق أشعر بأن خطواتي نشيطة كأني ذاهب الى حفلة تكريم وليس الى الإعدام، أنني اتماهى مع حيوية الأشياء، بداخلي طاقة هائلة، هذه الطاقة تجسدت في شيء واحد وهو الرغبة في الكلام، حاجة عارمة للإفضاء، الرغبة في تفريغ الحمولة، بداخلي شحنة ثقيلة تنتظر التفريغ، كأني أريد الخروج من الحياة فارغاً، كتلة مُفرّغة من الكلام...
لا اعرف مقدار المسافة التي تفصلني عن المكان المتوجه إليه، لم تكن لدي رغبة بخلق تصور عن ذلك، ما دامت تلك المسافة تفصلني عن نهايتي فما الداعي الى قياسها ولو افتراضاً، حسابها يؤدي الى إنقاصها وبالتالي يكون ذلك فعل تسريع، لماذا العجلة...!!
جلدني سوط الندم، لسبب واحد فقط، هو انني فيما مضى كنت قليل الكلام، لا اعرف المقدار المتبقي لي من حصتي في الحياة، ساعة.. نصف ساعة.. عشرة دقائق.. خمسة، المهم إنه عدّ تنازلي، الوقت في هكذا حالات لا يقاس بالساعات وانما يقاس بما لم يقال، كم يكفيني من الوقت لتعويض ما فاتني، ما يشغلني الآن هو الحمل الثقيل الذي عليّ أن أتخلص

مكتبة الفكر الجديد

منه، ينتابني الإحساس بأنني لم أقل شيئاً طيلة حياتي..
(أنا محصور)
قلت للسجّان الذي كان يقودني الى غرفة الإعدام، أجابني دون أن يلتفت الي:
(ليس الآن)
هو بالتأكيد لم يفهم ما أُريد، إن فكره اتجه نحو المرحاض، نعم أنا محصور، على العالم ان يفهم ذلك، أريد أن أفرّغ ما بداخلي، لا أريد ملاقاة الرب وأنا بكامل حمولتي، أرغب بالتجرد من أعباني، هنالك عفاريت تضج بداخلي وتريد الخروج من القمقم، نفسي تنوء بثقلها ويجب إزاحة مقدار من وزنها لكي تطلع روحي بسهولة ..
ـ هل تحب في عملك..؟
ـ نعم.
ـ أنا أيضا كنت أحب عملي، الا تريد أن تعرف ماهو عملي؟
ـ لا...
ـ أراك تطيل السكوت، لماذا أنت صامت؟ هل هناك ضريبة على الكلام أم إن الصمت من إشتراطات مهنتك، تكلم لكي أراك، سقراط من قال هذا، اتدري لماذا أُكرر ما قاله سقراط، لأني سألاقي نفس المصير الذي لاقاه، هو أيضا تم إعدامه ولكنه لم يكن قوّاداً، كان فيلسوفاً...
أنا أيضا كنت اضع الصمت من ضمن اولويات شروطي المهنية، اليوم فقط عرفت ان ما كنت أقوم به ليس صحيحاً، لا تكرر خطاي أرجوك، الحياة لا تستحق الحياء، علينا ان نُعرّيها بالثرثرة، نخلع عنها ثياب الصمت ونقرصها في مناطقها الحساسة لكي تصرخ...
إسمعني يا صديقي، الثرثرة واجب عيني بالنسبة لك، أنت تتعامل مع اشخاص بحاجة الى تكثيف حياتي، لقد اجتباك

مكتبة الفكر الجديد

القدر لتقودهم الى نهايتهم فلا تكن قائد اخرس، هم بحاجة الى التزود بممارسة حياتية أخيرة، في هذه اللحظات الصمت فعل جارح، أتدري لماذا؟ بعد هذه اللحظات سيكون هناك موعد مع الصمت الأبدي...

لا تصمت يا عزيزي، انك بهذا الاضراب عن الكلام تقوم بتعذيبي، تمارس عملك بساديّة مُفرطة، قليلٌ من الكلمات لا يكلفك شيئاً، اعتبرها صدقة، ان ما تقوم به تجاهي له معنى واحد، إنك بواسطة هذا الصمت تُعلمني بأن العالم غير مكترث لما سيحدث لي بعد قليل، رسالة العالم التي توصلها ألَيّ مكتوب فيها بأني شيء فائض عن الحاجة..

لم يتبقى أمامنا متسع من الوقت، انها اللحظات الاخيرة يا صديقي، هل توافق ان تكون صديقاً لقوّاد، في السابق كانت صداقتي مطمحاً للكثير، هل يعجبك ذلك الآن، لا عليك فأنها صداقة عابرة لن تجلب لك العار لأنها محددة بمسافة زمنية قصيرة جداً، صديقك القوّاد سيتم التخلص منه بعد قليل، سيرمى في خانة العدم، خطيئته الماسة بشرف الوطن سيتم مسحها هذا اليوم، هذه الليلة سينام الوطن هانئاً تحت لحاف الطمأنينة، سيضع رأسه على الوسادة ويستدعي كل أحلامه السعيدة، لقد تطهر أخيراً، تطهر من الروح الآثمة التي كانت تعبث بقداسته..

أنت لا تريد أن تسمعني، اليس كذلك..؟

ولكني محصور يا صديقي، صدقني ان كل الأشياء يمكن ان تحدث عندما يتعلق الأمر بالطهارة، كل شيء متوقع، بعد قليل سيحدث التحول المُنتظر في تاريخ الإستقامة الوطنية، التاريخ الوطني بعد هذا اليوم سيكون خالياً من أي شائبة تعكر مزاجه، ستكون صفحته ناصعة بعد حذفي منها، كل ما يمكن أن أكونه هو مجرد ذكرى، ولكنها ذكرى محضورة،

مكتبة الفكر الجديد

يمنع تداولها بكافة طرق التداول، ماذا عنك يا صديقي، هل ستتذكرني.. ماذا ستقول عني؟ هذا الصحبة القصيرة هل ستترك أثراً في ذاكرتك؟، لابد ان ذاكرتك متشبعة بثرثرات المقبلين على الموت من امثالي، لا عليك يا صديقي من هنياني فأنا محصور، أنا محصور ومراحيض الوطن جميعها لا تقبل منحي رخصة النخول اليها، كلها رفضت منحي تأشيرة الدخول.

السجّان الطويل الشاحب، ينصت الى ما أقوله وهو مستغرق في صمت رهيب يلائم رهبة ما سيحدث بعد قليل، ذلك الصمت ذكّرني بنيسلون مانديلا وهو يقول (في أحلك أوقات السجن حينما كنت اساق الى حافة القدرة على الاحتمال كنت أرى وميضا من الانسانية في أحد الحراس ربما لمدّة ثانية، كان ذلك الوميض يطمئنني)، نظرت الى وجه السجّان ولكني لم أطمئن، سألته (أصحيح أن مانديلا قد مات؟)

اوصلني الى غرفة ذات إضاءة خافتة، كنت ارتدي بدلة حمراء، اضاف لونها الى المشهد بُعداً إنطباعياً، داخل تلك الغرفة لاحظت تواجد ثلاثة أشخاص عرفت من طبيعة ملابسهم ان أحدهم طبيب والثاني رجل دين اما الثالث فهو من سيتولى تنفيذ عملية الشنق..

بهرني منظر الحبل المتدلي من أعلى السقف، شعرت بأن كينونة الوطن كلها تحضر في تلافيف ذلك الحبل، إستدارته ذات إيحاء غريب، رأس برقبة غليظة مقلوب الى الاسفل، تصورته قدري، نعم إنه قدرٌ بأبعاد رمزية صيغت من أجل أمثالي من المتسببين بتدنيس طهارة الاوطان..

ركّزت النظر الى الإستدارة، مقاسها مطابق لمقاس رقبتي، يبدو ذلك، ذهبتْ بي الأوهام و الخيالات بعيداً، ها أنا ذا أتدلى من أعلى السقف برقبة مائلة وعينان جاحظتان، أتحرك ببطء

مكتبة الفكر الجديد

وكأني أستدير لالملم نفسي، أنا منتشي، لابد ان هناك سر لهذه النشوى التي لا يشعر بها الا من ذاق طعم الإعدام، طاقة شعورية متفجرة تناقض قوانين الموت والفناء، إنها المرّة الاولى التي يرفعني فيها الوطن الى الاعلى..
تصورت هذا، إفترضته، إني أمارس الإفتراض اللعين حتى وأنا في مواجهة المشنقة، بعد لحظات سينتهي كل شيء، سُيعدم الإفتراض الذي هو أنا....
انضمّ الى الكادر المتواجد في غرفة الإعدام شخص رابع هو من قام بتلاوة المرسوم الجمهوري، الثلاثة الاوائل كانو يقفون بعيداً عن الموقع الخاص بتنفيذ الحكم، كانت وجوههم غير واضحة وكأنها قطع زجاجية تكاثف عليها البخار، صاحب الصدرية البيضاء بقي ساكناً ولم يتحرك، أنا أعلم بأن مهمته مؤجلة لما بعد التنفيذ وعندما يحين دوره سيقوم باعداد تقرير مقتضب يشرح فيه ان العملية تمت بنجاح وان الجسد أصبح خالياً من الروح، هو يمثل المؤسسة الصحية.
أما رجل الدين بزيه التقليدي فلم أعرف أي جهة يمثل، يقولون إنه خليفة الله في الأرض ولكني اتسائل عن حضوره، هل هو هنا بصفة رسمية، هل بعثه الرب ليشهد هذا اليوم التاريخي؟
حين أقترب مني كاد قلبي ان يسقط من بين أضلاعي، يا آلهي أنها الإهانة الثالثة، الإهانة الختامية التي تسبق الموت، ذلك الوجه المتخصص بإهانتي هاهو يظهر من جديد ولكن هذه المرّة بلحية طويلة وجبهة موشومة بعلامة داكنة، (ابو نظمي) يتلو عليّ إرشادات دينية ويسألني ان كانت لديّ وصية أخيرة، هذه المرة لم أخضع لسلطان المفاجئة، قابلتها بالصمت، لم أعبأ بها نهائياً، كانت مداركي تتجه إليك...
اليك فقط، أنت يا صاحب الدور الأخير، يا صاحب اليد التي ستنهي كل شيء، هنالك شيء وحيد أريد أن أقوله لك،

مكتبة الفكر الجديد

لك وحدك، لا اريد ان يسمعه احد من فرقة الاعدام، كل ما حدث لم يفاجئني، كل شيء كان متوقعاً، كله كان في سياقاتي الافتراضية، الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالي ولم أكن أتوقعه هو أن تكون أنت، يا عبد الرزاق الجبران، من يقوم بلف حبل المشنقة على رقبتي..

***

مكتبة الفكر الجديد

الهوامش

(1) عبد الرزاق الجبران/ كاتب عراقي له مؤلفات مشهورة مثل (مبغى المعبد) و(لصوص الله) و(جمهورية النبي)
(2) عبد الستار ناصر / روائي عراقي
(3) نهر جاسم: نهر يقع في محافظة البصرة غرف فيه العديد من الجنود العراقيين في الحرب العراقية الايرانية
(4) المقالة للكتاب: سامي لبيب/ بتصرف/ الحوار المتمدن/ العدد 2898

مكتبة الفكر الجديد

Kish Homeland

Shaheed (author from Iraq)

NOVEL

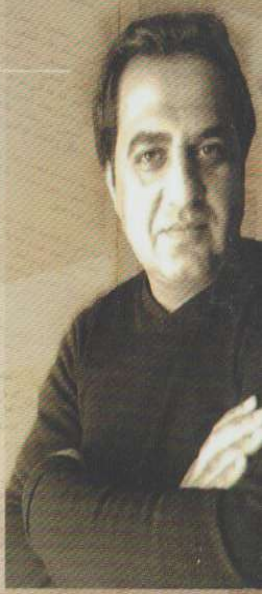

لم يتبق أمامنا متسع من الوقت، انها اللحظات الاخيرة يا صديقي، هل توافق ان تكون صديقاً لقوّاد، في السابق كانت صداقتي مطمحاً للكثير، هل يعجبك ذلك الآن، لا عليك فأنها صداقة عابرة لن تجلب لك العار لأنها محددة بمسافة زمنية قصيرة جداً، صديقك القوّاد سيتم التخلص منه بعد قليل، سيرمى في خانة العدم، خطيئته الماسة بشرف الوطن سيتم مسحها هذا اليوم، هذه الليلة سينام الوطن هانئاً تحت لحاف الطمأنينة، سيضع رأسه على الوسادة ويستدعي كل أحلامه السعيدة، لقد تطّهر أخيراً، تطّهر من الروح الآثمة التي كانت تعبث بقداسته..

كش وطن

شهيد

مؤلف من العراق

رواية

لوحة الغلاف
للفنان الفوتوغرافي
محمود الجازع

...gn Sillat Media

سطور

مكتبة
الفكر
الجديد